الاغتراب في القصة القرآنية
قصة آدم عليه السلام نموذجًا

دكتور

إبراهيم محمد محمد عبد الرحمن

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب – جامعة العريش

d.ebrahem٢@yahoo.com

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م.

الملخص

يدور هذا البحث حول ظاهرة (الاغتراب في القصة القرآنية – قصة آدم عليه السلام نموذجًا)، والاغتراب ليس وليد هذا العصر، بل إن الإحساس به وُجِدَ مع وجود الإنسان على الأرض، بل يمكن القول: إنه وجد قبل خلق الإنسان.

وحاول البحث بيان مفهوم الاغتراب وأنواعه، وكشف عن أسباب وجود هذه الظاهرة في قصة آدم عليه السلام، وبان أن هذه الأسباب – في جملتها – ترجع إلى الذات التي انحرفت عن الفطرة السوية التي فطر الله الخلق عليها، وهذه الأسباب هي: الجهل بحكمة الأمر الإلهي، وانحراف التفكير، وارتكاب المعاصي، ونسيان الأمر الإلهي، واتباع وساوس الشيطان، وحب الشهوات.

وكشفت الدراسة عن تعدد أنواع الاغتراب في قصة آدم عليه السلام ما بين اغتراب معنوي واغتراب حسي، مثل: الاغتراب المعرفي، والاغتراب الشعوري والروحي والنفسي، والاغتراب المكاني.

كما كشفت عن أن ظاهرة الاغتراب في قصة آدم عليه السلام كان لها تجلياتها في جميع مكونات النص؛ فكان لها انعكاسها في الناحية الصوتية (الإيقاع)، وفي المعجم والصيغ، وفي الأبنية والتراكيب، وفي الأساليب، وفي أبنية القص.

الكلمات المفتاحية: الاغتراب – القصة – القرآن – آدم عليه السلام.

Research Summary

The story of the research on the phenomenon of (alienation in the Qur'anic story - Adam, peace be upon him, as an example). Alienation is not a product of this era. Rather, the feeling of it existed with the presence of man on earth. In fact, it can be said: it existed before the creation of man.

Therefore, we sought to clarify the concept of alienation and its types, and to reveal the reason for the existence of this phenomenon in the story of Adam, peace be upon him, and to show that this - in its entirety - is due to the self that deviated from the normal innate nature that God created His creation, and the most important of this foundation: ignorance of the definition of the divine command, Deviant thinking, committing sins, forgetting the divine command, following the whispers of Satan, and loving desires.

The study revealed multiple types of alienation in the story of Adam, peace be upon him, between moral alienation and sensory alienation, including: cognitive alienation, emotional, spiritual, and psychological alienation, and spatial alienation.

They also revealed that the phenomenon of alienation in the story of Adam, peace be upon him, had its manifestations in all components of the text. It was reflected in the phonetic aspect (rhythm), in the lexicon and formulas, in the structures and compositions, in the styles, and in the structures of storytelling.

Keywords: Alienation - the story - the Qur'an – Adam.

مقدمة

شغلت قضية الاغتراب بؤرة تفكير كثير من الفلاسفة والمفكرين والمثقفين والأنثروبولوجيين والفنانين في العصر الحديث في الشرق والغرب على حدٍّ سواء، وغزت كثيرًا من المجالات، فالاغتراب الآن أصبح موضوعًا في مجالات الأدب والثقافة والفكر، وله دور مهم في تقييم الأوضاع الاجتماعية، وموضوع مهم في مجالات شتى، كالفلسفة والأدب وعلم الاجتماع، ومن ثم تعددت الكتابة فيه من قبل كبار الأدباء والكتاب والمثقفين، وما زال الاغتراب موضوعًا مهمًّا للأكاديميين والنقاد والروائيين والمفكرين في العالم كله، حتى صار مظهرًا لازمًا للحياة الإنسانية في الواقع المعيش، «وقد بدأ هذا الموضوع في مختلف تنوعاته ينتشر من خلال الفكر النقدي والتحليلي بشكل خاص في مختلف الثقافات البارزة، ولا يستثنى من ذلك الثقافة العربية»[1].

وبروز هذه القضية بهذا الشكل اللافت في عالمنا ناشئ عن تعاظم الظروف والأزمات والأحداث الضاغطة وبشدة على الإنسان الحديث والمعاصر؛ نتيجة التحولات الإيديولوجية والفكرية والثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل والعسكرية؛ مما جعل الإنسان يعيش ضروبًا من الاغتراب، لا على المستوى المادي فقط، بل على المستوى الروحي والمعنوي كذلك، حاصرت الإنسان بالوحشة والقلق والشعور بأن وجوده لا قيمة له، أو أن وجوده زائد على الحاجة، وهذا نابع من وعيه بما حدث له من تهميش وإبعاد وإقصاء وغيرها من العوامل التي أوقعته في مصيدة الاغتراب، وهو ما يعد موقفًا اتخذه إزاء ذلك، فهو قد فقد انتماءه للمجتمع نتيجة إدراكه ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واهٍ، وأن الاضطراب والفوضوية هما أعمق تجذرًا من النظام الذي يؤمن به قومه[2].

---

(٢) حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية – متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى) ص ٣٥.

(١) يراجع: أيمن حماد: الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة، (مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م) ص ٢٠.

ولا يعني هذا أن هذه القضية وليدة هذا العصر، بل إن الإحساس بالاغتراب وُجِدَ مع وجود الإنسان على الأرض؛ فالإنسان منذ بدأ يدبُّ على الأرض عانى أنواعًا من الاغتراب المادي والروحي، وحمل بين جوانحه ألوانًا من الإحساس بالاغتراب؛ حتى لقد تلونت حياته بهذا الإحساس، عبر هو عنه أحيانًا من خلال أدبه، أو نقله عنه غيره من خلال القصص التي حيكت من الآخر، كما في قصص القرآن الكريم، فقد حكاها الله لنا عن أشخاص، وفيها تتكشف أنواع متعددة من الاغتراب، ألوان من الإحساس به عند هؤلاء الأشخاص في هذه القصص، ولا يقولن قائل: إن قصص الآخر عن غيره قد لا تنقل إحساسات هذا الغير نقلاً صادقًا أو واقعيًّا، وأقول: هذا إن كان يصدق على القاص البشري، لكن أن يكون القص من الله تعالى أو من رسوله ﷺ فلا؛ فالقصص القرآني ينقل لنا الإحساسات في أعلى درجات الدقة والواقعية؛ لأن الله تعالى أخبرنا أن هذا القصص ﴿لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وأنه ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وكذلك قصص الرسول ﷺ الثابت عنه لا الموضوع؛ لأنه - كما أخبر عنه القرآن - ﴿مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٣-٥].

وقصة آدم عليه السلام وردت في القرآن الكريم في ثمانية مواضع من القرآن، في سور: البقرة، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، وص، والمائدة، وهي كالآتي:

الموضع الأول- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ۝٣٤ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٣٥ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٠-٣٩].

الموضع الثاني- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١١-٢٧].

الموضع الثالث- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا

لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: ٢٨-٤٣].

الموضع الرابع- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

الموضع الخامس- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

الموضع السادس- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١١٥-١٢٣].

الموضع السابع- قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا

إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٧١-٨٥].

الموضع الثامن الأخير- قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة: ٢٧-٣١].

وقصة آدم عليه السلام فيها مظاهر متنوعة من الاغتراب المادي والمعنوي، والجسدي والروحي، والحسي والشعوري.

أهمية دراسة الموضوع:

ترجع أهمية دراسة هذا الموضوع إلى عدة أمور:

أولاً- هذا الموضوع يتعلق بكتاب الله تعالى المعجز في بلاغته، المتفرد في أسلوبه، السامي في معانيه، ﴿إِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

ثانيًا- دراسة الموضوع تمثل نوعًا من تجريب النظريات الحديثة في دراسة جوانب في القرآن الكريم تكشف عن وجوه جديدة من بلاغته الإعجازية.

ثالثًا- دراسة الموضوع تسهم في كشف مضامين ومعانٍ جديدة لم يلتفت إليها العلماء السابقون الذين تعرضوا للنص القرآني بالتفسير والتحليل، وهذا ديدن القرآن دائمًا متجدد بتجدد الأحوال والظروف والأعصر.

تساؤلات البحث:

يطرح هذا البحث العديد من التساؤلات، أبرزها:

ما المقصود بالاغتراب لغة واصطلاحًا؟ ما أنواعه؟ هل الاغتراب واقع فعلاً في القصة القرآنية؟ ما أسباب وقوع الاغتراب في قصة آدم عليه السلام؟ وما أنواعه في هذه القصة؟ وما تجليات هذه الظاهرة الفنية في القصة؟ وما تجلياتها في أدوات بناء القصة من إيقاع ومعجم وتراكيب وأساليب وتقنيات سردية.

وستحاول الدراسة الإجابة عن هذه التساؤلات، وحل هذه الإشكاليات في الصفحات التالية.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات عديدة تناولت ظاهرة الاغتراب - بوصفها موضوعًا حديثًا له أسسه وضوابطه العلمية والفنية والمنهجية - في الأدب وغير الأدب؛ فنجد من درس الاغتراب النفسي والاجتماعي والفلسفي والثقافي والفكري، ومن درسه في الشعر وفي القصة والرواية والمسرح، لكن لا أحسب أن هناك دراسة تناولت الظاهرة في النص القرآني، ولعل السبب في ذلك هو التحرج؛ نظرًا لقداسة القرآن الكريم، ومرد هذا التحرج: كيف نوظف النظريات الحديثة في مقاربة النص القرآني؟ وبالذات ظاهرة الاغتراب بما يحمله هذا من دلالات تحمل على التوجس؟

والذي أراه، أنه لا ضير من توظيف النظريات الحديثة في مقاربة النص القرآني، شريطة ألا يمس ذلك بقدسيته، أو أن توظيف مثل هذه النظريات يحيد بالنص عن مقصوده، أو يمثل لونًا من التمحل والتمحك.

ومن الدراسات التي تناولت الاغتراب في الأدب:

١- الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري – دراسة اجتماعية نفسية (كتاب)، للدكتور: أحمد علي الفلاحي، كلية العلوم الإسلامية في الفلوجة، جامعة الأنبار، العراق، مكتبة: دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٢- الاغتراب في الشعر العربي المعاصر (كتاب)، للدكتور: محمد راضي جعفر، مكتبة: دار المعتز للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣- الاغتراب في شعر نازك الملائكة (كتاب)، للدكتورة: ساجدة عبد الكريم خلف التميمي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٧م .

٤- الاغتراب في شعر الشاعرين: محمود درويش وشيركو بيكه س- دراسة تحليلية فنية (رسالة ماجستير)، للباحثة: كيلاس محمد عزيز العسكري، جامعة بغداد، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

٥- الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة (كتاب)، للدكتور: أيمن حماد، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م.

٦- الغربة والاغتراب في رواية غائب طعمة فرمان (رسالة ماجستير)، للباحثة: زهرة بن عيش، جامعة محمد بوضياف بالجزائر، ٢٠١٥م.

٧- أثر الغربة والاغتراب في شعر الجواهري – دراسة تحليلية (بحث)، للباحث: رافد سالم سرحان شهاب، مجلة التقني، الأنبار بالعراق، المجلد السادس والعشرون، العدد السادس، ٢٠١٣م.

٨- تجليات الاغتراب في رواية الحب في المنفى لبهاء طاهر (بحث)، للدكتور: عادل هنداوي شعبان، مجلة فيولوجي، كلية الألسن بجامعة عين شمس بمصر، العدد ٦٧، يناير ٢٠١٧م.

وغير ذلك من الدراسات التي تركزت في مجال الأدب في الشعر والرواية، وهي تختلف عن دراستي هنا في أن ميدان هذه الدراسات يختلف عن ميدان الدراسة عندي، فميدان دراستي القصة القرآنية وليس الشعر أو الرواية.

منهج البحث:

اتبعت الدراسة منهجًا يقوم على: استقراء الظاهرة ووصفها وتحليل معطياتها؛ لاستنباط أبرز النتائج.

خطة البحث:

لتحقيق أهداف الدراسة تم تقسيمها إلى: تمهيد، وثلاثة مباحث، سبقت بمقدمة، وتلتها خاتمة، ثم قائمة بالمصادر والمراجع.

المقدمة اشتملت على: نبذة مختصرة عن ظاهرة الاغتراب، وتعريف بها وبموضوع الدراسة، وخطة البحث فيها، والمنهج المتبع.

التمهيد- تناول مفهوم الاغتراب وأنواعه.

المبحث الأول- تناول أسباب الاغتراب في القصة.

المبحث الثاني- تناول أنواع الاغتراب في القصة.

المبحث الثالث- تناول التجليات الفنية للاغتراب في القصة.

وأوجزتِ الخاتمة أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

ثم أُتْبِعَتِ الخاتمةُ بقائمة المصادر والمراجع.

وأرجو أن أكون وفقت في اختيار موضوع الدراسة وبحثه وعرضه، بما يحقق الهدف المرجو منه، وأسأل الله أن يتجاوز عما فيه من خطأ أو زلل أو نسيان.

الباحث

التمهيد

مفهوم الاغتراب وأنواعه

أشرت إلى أن الاغتراب بوصفه ظاهرة إنسانية وجدت مع وجود الإنسان على الأرض، فمنذ تكونت المجتمعات الأولى نشأت معها وفي ظل سننها وتقاليدها المشاكل والأزمات التي تتمخض بشكل أو بآخر عن أنواع من الاغتراب عانى منها الفرد، وكانت تقوده أحيانًا إلى التمرد والعصيان، وأحيانًا أخرى إلى الاستسلام والانعزال والانكفاء على الذات[1].

ولا تزال ظاهرة الاغتراب تساير حركة الحياة وتطورها حتى الآن، لكن الاغتراب بوصفه نظرية علمية لم يكثر حوله الحديث إلا في العصر الحديث، وخصوصًا بعد وقوع الحربين العالميتين وما نجم عنهما من مآس إنسانية أدت إلى اغتراب الإنسان ماديًّا وروحيًّا وشعوره بالإحساس بالغربة؛ مما جعل الفلاسفة والمفكرين والنقاد يلتفتون إلى هذه الظاهرة، محاولين تأطيرها في نظرية علمية؛ فحاولوا وضع تعريف محدد للاغتراب، ورسم حدوده وضوابطه وأسسه التي يقوم عليها، وبيان أنواعه التي يستند إليها.

و«مصطلح الاغتراب يُعَدُّ الآن من أكثر المصطلحات تداولاً في الكتابات التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث ...؛ إذ ظهرت في السنوات الأخيرة مؤلفات عديدة - وفي مختلف اللغات – حاولت أن تتناول مفاهيم الاغتراب ومضامينه، وأساليب معالجته في مجالات متعددة؛ إذ عدَّ الكثير من الكتاب والمفكرين ظاهرة الاغتراب من أهم السمات المميزة للعصر»[2].

والاغتراب والتغرّب وَالِاسْم الغُربة من غَرَبَ، أي: الابتعاد، و«الاغتراب: البعد، يقال: اغترب عني. ومنه الاغتراب عن الوطن وهو الابتعاد، وفي الحديث: «اغتربوا ولا

---

١) يراجع: محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر (دار المعتز للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م - ١٤٣٤هـ) ص١٥.

٢) أحمد علي الفلاحي: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري – دراسة اجتماعية نفسية (دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م) ص١١.

تضووا»[1]، أي: «انكحوا الأباعد ولا تُنكحوا الأقارب»[2].

و«الاغتراب: أمر يشار به إلى الانفراد عن الأكفاء. يريد: أن كل من انفرد بوصف شريف دون أبناء جنسه، فإنه غريب بينهم؛ لعدم مشاركه أو لقلته»[3].

فالمعنى اللغوي يشير إلى عدة معانٍ للاغتراب؛ الابتعاد، وترك الوطن بالارتحال عنه، وترك زواج القريبة، والتفرد في شيء ما، وكل هذه المعاني تمثل صورا من صور الاغتراب، لكن صوره بالمفهوم المصطلحي أوسع من ذلك.

والاغتراب مصطلح تردد في التراث العربي، فقد اشتملت عليه عناوين بعض الكتب، مثل: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب للسان الدين بن الخطيب، وغرائب الاغتراب ونزهة الألباب لشهاب الدين محمود الألوسي.

وجعل ابن القيم الاغتراب على ثلاث درجات؛ الدرجة الأولى: الغربة عن الأوطان، والدرجة الثانية: غربة الحال، ويريد بالحال ها هنا: الوصف الذي قام به، والدرجة الثالثة: غربة الهمة، وهي غربة طلب الحق، وهي غربة العارف، والغربة الأولى غربة بالأبدان. والثانية: غربة بالأفعال والأحوال. وهذه الثالثة: غربة بالهمم[4].

---

١) أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي: المجالسة وجواهر العلم، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (جمعية التربية الإسلامية، البحرين – أم الحصم، ودار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م) ٨/ ٤٦.

٢) نشوان بن سعيد الحميرى اليمني: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد عبد الله، (دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، ودار الفكر، دمشق – سورية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م) ٨/ ٤٩٤٠.

٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م) ٣/ ١٩١.

٤) يراجع: ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين، ٣/ ١٩١-١٩٣.

وظهر مصطلح الاغتراب في اللغة اللاتينية مترجمًا عن بعض المصطلحات اليونانية التي تشير لحالة تحول الكائن خارج ذاته، أو حالة الإنسان الذي تجاوز ذاته.

وكان هيجل أول من استخدم المصطلح بشكل منهجي، وهو يرى أنه مصطلح مزدوج الدلالة؛ فهو يحمل معنًى إيجابيًّا يتمثل في تجليات الروح إبداعيًّا، كما يحمل معنًى سلبيًّا يتمثل في عدم قدرة الإنسان على التعرف على ذاته بين المخلوقات والأشياء[1].

والاغتراب – كما يذهب روسو – يكمن في انفصال الإنسان عن ذاته ومجتمعه[2]، وهذا يؤدي بالإنسان إلى أن يعيش حالة من القلق والكآبة، ويعاني من توتر نفسي؛ لشعوره بالبعد عمن يهوى ويرغب، والحرمان من الفرص التي تجعله قادرًا على المشاركة في نشاطات يستطيع من خلالها إثبات ذاته.

إن الاغتراب يخلق نوعًا من الصراع الداخلي يعتمل في نفس الإنسان، والصراع الخارجي بين أفراد المجتمع أو المجتمعات، وهو ينقسم إلى أنواع متعددة؛ فنجد: الاغتراب عن الذات، والاغتراب من الأشخاص الآخرين، والاغتراب عن المجتمع وتقاليده وثقافته، والاغتراب عن الأفعال الخاصة التي تصدر من الشخص نفسه، والاغتراب السياسي، والاغتراب النفسي، والاغتراب المعرفي والثقافي والفكري، وأكاد أقول: إن الاغتراب – خصوصًا في عصرنا – يشمل جميع جوانب الحياة الدنيوية.

ويتبين لنا – مما سبق – تعدد أنواع الاغتراب، فهناك الغربة المادية ويكون ذلك بمغادرة الموطن بالارتحال عنه، أو الاغتراب الاجتماعي ويكون ذلك بتجنب المرء الآخرين والشعور بعدم الانتماء إلى مجتمعه الذي يعيش فيه، وعدم القدرة على التوافق والتكيف مع المجتمع، وهو ما نسميه (العزلة الاجتماعية)، وهناك الاغتراب النفسي الذي يتبدَّى في الإحساس بالفراغ والخوف والقلق والكبت والتوتر والعجز وعدم الإحساس

١) ينظر: محمود رجب: الاغتراب مسيرة المصطلح، (دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٦م) ص١١.

٢) ينظر: مجاهد عبد المنعم مجاهد: الإنسان والاغتراب، (سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م) ص٢٩.

بالراحة وعدم القدرة على مواجهة الواقع، وبهذا يغترب الشخص نفسيًّا ويتقوقع حول نفسه؛ ولذلك تجده مزاجيًّا يقيس الأمور بمقياس (الحب والكراهية)، فما يرتاح إليه يحبه ويلجأ إليه، وما يكرهه ينفر منه ويصد عنه[1].

ولا يمكن قصر أنواع الاغتراب على هذا فقط، فهذه الظاهرة تشمل – كما قلت – جوانب الحياة جميعًا، ففضلاً عن أن الاغتراب يكون ماديًّا، أي: الاغتراب في المكان، ويكون اجتماعيًّا عندما يعجز الإنسان عن التكيف مع مجتمعه، ويكون نفسيًّا عندما لا يكون الإنسان قادرًا على التكيف مع ذاته، فضلاً عن كل ذلك هناك الاغتراب الروحي الديني والخلقي، والاغتراب الفكري والثقافي، والاغتراب السياسي، بل التقصير في طلب معالي الأمور (ضعف الهمة) يعد اغترابًا ... إلخ.

وتشير أغلب الجهود التي قيلت في بيان مفهوم الاغتراب إلى «دخول عناصر معينة في مفهوم الاغتراب، مثل: الانعزال، والوحدة، والغربة، والانفصال، والانخلاع، والتخلي، والانتقال، والتجنب، والابتعاد، والانسلاخ عن المجتمع، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء، بل أيضًا انعدام الشعور بمغزى الحياة، ... وفي محاولة استقراء البنى السطحية أو العميقة لتلك المعاني نجد أنها تدل على جوانب مادية محسوسة، تتمثل بالبعد الحقيقي عن الأهل والوطن بمحض الإرادة، أو بعدمها من خلال النفي والتغريب. وجوانب معنوية تتعلق بالأثر النفسي والروحي، والمتمثلة بعدم الانسجام أو التلاؤم مع الوسط أو المجتمع»[2].

١) ينظر: محمد زكي العشماوي: دراسة في النقد الأدبي المعاصر، (دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م) ص٥٢.

٢) أحمد علي الفلاحي: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، ص١٤.

المبحث الأول
أسباب الاغتراب في قصة آدم

هناك أسباب كثيرة أدت إلى وقوع ظاهرة الاغتراب، وهذه الأسباب قد تكون خارجية مردها إلى المجتمع، أو داخلية مردها إلى الذات ذات المغترب نفسه؛ فأما الخارجية فتتعدد مظاهرها، مثل: الظلم الاجتماعي، والاستغلال الاقتصادي، والاستبداد السياسي، والاضطهاد الفكري والثقافي؛ هذه الأسباب التي تؤدي إلى: ضياع العدالة، وغياب الأمن، وفقدان الحرية، واضطراب المجتمعات، إلخ؛ مما يصيب الإنسان بالوحشة، ويدفعه إلى القلق والاضطراب النفسي، وهذا يؤدي به إلى العزلة والسلوك السلبي والصراع المجتمعي، في الأخير هو يحس بالغربة في مجتمعه الذي يعيش فيه.

وأما الداخلية الذاتية فمردها إلى: انحراف الفطرة، وسوء التفكير، وفساد الطبع، واعوجاج النفس، وتحكم الشهوات، والبعد عن النظر السليم في الأمور، والأنانية المفرطة، إلى آخر هذه الأمور التي تنفر المجتمع من الشخص، فيقع في العزلة والاغتراب.

وفي قصة آدم عليه السلام لا وجود للأسباب الخارجية التي يموج بها المجتمع البشري؛ إذ هو مجتمع بكر، رباني فطري، لم يتلوث بعدُ بالصرعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والمجتمع البشري مجتمع ناشئ يخطو أولى خطواته في التشكل والتكون؛ ولذلك فأسباب الاغتراب في هذه القصة ترجع إلى الذات التي انحرفت عن الفطرة السوية التي فطر الله الخلق عليها، وأهم هذه الأسباب:

السبب الأول- الجهل بحِكْمَة الأمر الإلهي:

الجهل بالأمر الإلهي وعدم معرفة حكمته، مرده إلى محدودية علم المخلوق بالقياس إلى علم الله، وقد وقع ذلك للملائكة الذين انتابهم الدهش والاستغراب عندما أخبرهم الله تعالى بأنه سيخلق آدم ليكون هو وذريته خليفته في الأرض، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وحكموا هذا الحكم على آدم وذريته إما بناء على ما خَبَروه من حال الجن الذين سكنوا

الأرض قبل بني آدم، وإما لما علموه من الطبيعة البشرية وأنها مركبة من مجموعة قوى: القوة الشهوانية والقوة الغضبية وهما مذمومتان، والقوة الملائكية المحمودة، فنظر الملائكة إلى القوتين الأوليين، ولم يلتفتوا إلى القوة الأخيرة الحاملة على فعل الخيرات وترك المنكرات، ومن ثم جاء حكمهم على بني آدم بالإفساد وسفك الدماء.

وقولهم هذا ليس اعتراضًا على أمر الله وإرادته، وإنما هو استغراب واندهاش معلل بأن هذا المخلوق قد يعيث في الأرض فسادًا، ويتنكب الأمر الإلهي، وهم الذين ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

ومع هذا، فإن هذا الذي قالوه: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ يحمل في طياته باعثًا نربأ بالملائكة أن يكونوا وقعوا فيه، ألا وهو: الشعور بأفضليتهم وعلو مكانتهم عند الله حملهم على استهجان أن يخلق الله خليفة في الأرض؛ ومن ثم عقدوا هذه المقارنة بينهم وبين مخلوق لم يعلموا عنه شيئًا بعدُ سوى أنه سيكون خليفة الله في الأرض، فوصموه بالفساد والإفساد وسفك الدماء، ووسموا أنفسهم بالتسبيح لله والتقديس له؛ ليبينوا فضلهم عند الله؛ ولذلك جاءهم الرد من الله حاسمًا قاطعًا منطويًا على لون من التوبيخ، وجاءهم مرة بعد مرة، فقال لهم بعد قولهم السابق مباشرة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: أعلم بما سيكون من شأن هذا المخلوق، وأنه سيكون من ذريته: الرسل والأنبياء والأولياء والصالحون ممن هم أعلى درجة من الملائكة في الطاعة والصلاح، وعلو درجتهم جاءت من كونهم بلغوا من درجات الطاعة والصلاح بالرغم من وجود عوائق القوة الشهوانية والقوة الغضبية في مقابل القوة الملائكية التي توجد وحدها في الملائكة، وإذن فوصول الملائكة إلى درجة الطاعة والصلاح دون معوق، لكن ابن آدم حينما يصل إلى هذه الدرجة فيصلها مع وجود المعوق، والوصول إلى الشيء النافع مع وجود المعوق أعظم درجة من الوصول إليه مع وجود المعوق، فظهرت بذلك فضيلة بني آدم وتقدمهم في الفضل على الملائكة.

ثم قال لهم مرة أخرى بعد أن كشف لهم تقاصر علمهم عن علم آدم الذي علمه الله إياه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ

تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، ففي هذين القولين لون من التوبيخ المبطن للملائكة، وأنهم ما كان ينبغي لهم أن يقولوا ما قالوا في حق آدم؛ لقصور علمهم، فكان ينبغي عليهم أن يعلموا هذا من أنفسهم، وفي القول الكريم الثاني إشارة إلى أن الملائكة أبدوا شيئًا في أمر آدم وكتموا شيئًا؛ فأما ما أبدوه فقد علمناه من الآيات، وهو قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وأما ما كتموه فقد نستشفه من الآية، وهو ظنهم: أنهم أفضل المخلوقات وأعلمها، فـ«استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنّ في قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، ثم إن الحق سبحانه عرّفهم أن الفضيلة بالعلم أتمّ من الفضيلة بالفعل، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه، وآدم كان أكثر علما وأوفره، فظهرت فضيلته ومرتبته»[1].

السبب الثاني: انحراف التفكير:

يتجلى هذا السبب فيما قام به إبليس، عندما قاس قياسًا خاطئًا؛ قاس أصل خلقه (النار) بأصل خلق آدم (الطين) فحينما سأله الله تعالى - كما جاء في سورة الأعراف -: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الآية: ١٢]. وفي سورة الحجر: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الآية: ٣٢، ٣٣]. وفي سورة ص: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الآية: ٧٥، ٧٦]. هذه مواضع ثلاثة بنيت على الحوار بين الله تعالى وإبليس، وجاء الحوار في صورة سؤال وجواب، وبني موضع سورة الإسراء على القص: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الآية: ٦١].

---

١) القشيري، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات تحقيق: إبراهيم البسيوني (الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة الثالثة) ١/ ٧٥.

وقد اختلفت الألفاظ بين هذه المواضع، وهذا ديدن القرآن في الذكر الحكيم قاطبة، وبخاصة القصص منه، وفي هذه المواضع الثلاثة من قصة آدم قال سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الآية: ١٢]، وفي سورة الحجر: ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الآية: ٣٢] وفي سورة ص: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [الآية: ٧٥] «واختلاف العبارات عند الحكاية يدل على أن اللعين قد أدرج في معصية واحدة ثلاث معاص؛ مخالفة الأمر، ومفارقة الجماعة، والاستكبار مع تحقير آدم، وقد وُبِّخَ على كل واحدة منها، لكن اقتصر عند الحكاية في كل موطن على ما ذكر فيه اكتفاء بما ذكر في موطن آخر، وقد تركت حكاية التوبيخ رأسًا في سورة البقرة والإسراء والكهف وطه»[١].

وقد علله بعضهم بجريان ذلك على كلام العرب؛ فإن العرب تفعل «ذلك في نظائره؛ مما تتفق معانيه وتختلف ألفاظه»[٢]، فـ«ذكر الله تعالى قصة إبليس، وقصة الأنبياء جميعًا في مواضع على اختلاف الألفاظ؛ لأنها كذلك كانت في كتبهم، فذكرها على ما في كتبهم؛ ليعلموا أن نبي الله إنما عرف ذلك بالله؛ ليدلهم على صدقه، وفيه دلالة أن اختلاف الألفاظ وتغييرها لا يوجب اختلاف الحكم بعدَ ألاّ يُغَيَّر المعنى، فهذا يدل أن الخبر إذا أُدِّي معناه على اختلاف لفظه – فإنه يجوز، وكذلك إذا قرأ بغير لسان الذي أنزل – فإنه يجوز إذا أتى بمعناه»[٣].

---

١) القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، (المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م) ٤/ ٣١٠.

٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دار التربية والتراث، مكة المكرمة) (٥/ ٣٠١).

٣) الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود: تأويلات أهل السنة، تحقيق: مجدي باسلوم (دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م) (٦/ ٤٣٨)

وذكر آخرون أن اختلاف الألفاظ «يدل على أن ليس على الناس حفظ الألفاظ والحروف، وكذلك ما ذكر في القصص على اختلاف الألفاظ مكررة معادة»[1].

وقد أُتِيَ إبليس من الخطأ في استعمال القياس في هذا الموقف، فقد «اشتغل اللعين بالقياس، والقياس في موضع النص باطل؛ لأنه لما أقرّ بأنه هو الذي خلقه فقد أقرّ بأن عليه واجبًا، وعليه أن يأتمر بأمره»[2]؛ ولذلك من قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس[3].

ثم أُتِيَ من فساد قياسه، فما الذي أعلمه أن النار خير من الطين؟ و«أن المخلوق من النار خير من المخلوق بالطين؟ إلا أن يقال بأن النار جعلت لمصالح الأغذية، فمن هنا وقع له ذلك أنها خير من الطين، فيقال: إن النار وإن جعلت لصلاح الأغذية؛ فالطين جعل لوجود الأغذية فالذي جعل لوجود الشيء هو أنفع وأكبر مما جعل لمصالحه، ولعل الأغذية تصلح للأكل بغيرها بالشمس وغيرها. وبعدُ فإن الطين مما يقوم للنار ويطفئها ويتلفها، والنار لا تقوم للطين ولا تتلفه؛ فإذا كان كذلك فلا يجوز أن يقع من هذا الوجه أنها أفضل وأخير من الطين»[4]، ثم إن «الفضيلة لا تحصل إلا بفضل الله تعالى لا بسبب فضيلة الأصل والجوهر، وأيضا التكليف إنما يتناول الحي بعد انتهائه إلى حد كمال العقل، فالمعتبر بما انتهى إليه لا بما خلق منه، وأيضا فالفضل إنما يكون بالأعمال وما

١) الماتريدي، تأويلات أهل السنة، (٨/ ٦٤٨).

٢) السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم: بحر العلوم، (١/ ٥٠٥). وينظر: الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: التفسير الوسيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م) (٢/ ٣٥٣).

٣) ينظر: البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: تفسيره (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، تحقيق: سليمان مسلم الحرش (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)٣/ ٢١٧.

٤) الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود: تأويلات أهل السنة، (٤/ ٣٦٨، ٣٦٩).

يتصل بها لا بسبب المادة»[1]، «لقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] أي: بغير واسطة، وباعتبار الصورة، كما نبه عليه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر؛ ولذلك أمر الملائكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأن له خواصًّا ليست لغيره. وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته، يشرف بفاعله وغايته وصورته، والثلاثة في آدم عليه السلام دونه، فاستبان غلطه»[2].

السبب الثالث- ارتكاب المعاصي:

تجلى ذلك في إبليس الذى ارتكب أكثر من معصية: الأولى- عدم الطاعة لأمر الله برفضه السجود لآدم، والثانية- التكبر، والثالثة- الجحود والكفر، وجمعها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، أي: امتنع عن السجود تكبرًا، فكبره منعه من السجود، وبسبب الامتناع عن طاعة الأمر والكبر، صار من الكافرين، فكان هنا بمعنى: صار، ويستدل بالاستثناء أن الأَمر كان عليهم جميعًا في الأَصل، فالأَمرُ بالسجود كان لإبليس وللملائِكة جميعًا. والمعصية الرابعة- الحسد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]. والخامسة- إغواء عباد الله وإضلالهم وصدهم عن سبيل الله، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦] وفي قوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢]

---

١) الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ) ١٤/ ٢٠٨.

٢) القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق: محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ) ٥/ ١٣.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

ووقع ابن آدم قابيل فيما وقع فيه إبليس من معاصٍ، وبخاصة (الحسد) الذي أوقعه فيما وقع فيه من قتل أخيه، وهي معصية شنيعة بشعة، فليس هناك أبشع ولا أشنع من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق؛ لأن هذه الجريمة يترتب عليها أن يبوء مرتكبها بالخسران المبين في الدنيا والآخرة، كما أشارت آيات قصة ابني آدم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٣٠]. فقابيل - كما تشير الآيات - ارتكب أبشع المعاصي: الأولى- عدم الطاعة لأمر الله، والثانية- الحسد، والثالثة- العقوق وقطيعة الرحم، والرابعة – القتل، والخامسة- الغدر، والسادسة- عدم توقير الله وتقديره حق قدره؛ فاجتمع له بذلك «عقوقُ الأبِ، وحَسَدُ الأخ، وتحقيرُ القُربان، والتَّأخيرُ في الائتمار، فأفضى به ذلك إلى ردِّ الأمر والوقوعِ في الكفر، وكذلك إيثارُ المعاصي والإصرارُ عليها والاستهانةُ بها»[1].

السبب الرابع- نسيان الأمر الإلهي:

من أسباب الاغتراب المؤدية إليه في قصة آدم: نسيانه هو وحواء أمر الله لهما بعدم الاقتراب من الشجرة، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك النسيان بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] فكانت بليته عليه السلام في نسيانه وقلة عزمه، والإنسان يؤتى من إحدى هاتين البليتين؛ الأولى- النسيان، والثانية- تراخي العزم

١) النسفي، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد: التيسير في التفسير، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرين (دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، إسطنبول – تركيا، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م) ٥/ ٣٦٣.

(الفتور)؛ لأن الذي ينسى الأمر يداخله الفتور، ومن يداخله الفتور ينكص عن الأمر ويقع في المعصية؛ ولذلك كان أمر الله لنبيه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥]؛ لأن النسيان – وهو طبيعة بشرية – في أكثر الأحوال من أعظم ما يهدم الإنسان.

ومعنى ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ﴾: أوصيناه ونبهناه إلى عداوة إبليس له ولزوجه، فقد قال الله تعالى له: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٧-١١٩]، وفي قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ إشارة أن قصة آدم مسوقة لنا نحن للاعتبار والحذر من الوقوع في النسيان وفتور العزم كما وقع فيه آدم فيحيق بنا ما حاق به وبزوجه.

ونسيان آدم ليس معناه الترك والإعراض كما قال بعض المفسرين[1]؛ لأن الترك والإعراض عن أمر الله لا يجوز في حق آدم ولا الأنبياء، فيكون نسيان آدم هنا على الحقيقة، وإنما عوتب آدم عليه وعوقب لأنه إن جاز النسيان من غيره فإنه لا يجوز منه؛ لأنه كيف ينسى أمر من خلقه بيده وكرمه وفضله واصطفاه، فلعله عوقب وعوتب من هذه الجهة؛ لأنه نسي أمر الله له بترك الأكل من الشجرة ولم يحفظه، وعلى هذا جاء معنى قوله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: لم نجد له حفظًا لما أُمِرَ به، وهو معنى مشاكل للنسيان، فالنسيان ضد الحفظ والتذكر، أو لم نجد له إرادة تمنعه من الوقوع في الخطأ، وهذا من طبيعة الإنسان تضعف نفسه أحيانًا أمام الشهوات، ولضعفه تعتريه أمور كالنسيان وترك الاحتياط وعدم الاجتهاد وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

و«إنما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ناسيا بنص القرآن ومتأولاً وقاصدًا إلى الخير؛ لأنه قدر أنه يزداد حظوة عند الله تعالى فيكون ملكًا مقربًا أو خالدًا فيما هو فيه أبدًا،

---

١) يراجع: أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري: جامع البيان، ١٨/ ٣٨٣. الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي (عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ٣/ ٣٧٨. الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ٧/ ٣١٥. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م) ٥/ ٤٢٢. وغير ذلك.

فأداه ذلك إلى خلاف ما أمره الله عز وجل به، وكان الواجب أن يحمل أمر ربه عز وجل على ظاهره، لكن تأول وأراد الخير فلم يصبه»[1]، أو أنه عوتب على ترك التذكر والحفظ والمبالغة في ضبط نفسه والتحرز حتى تولد عن ذلك النسيان، وعوقب لأن الخطأ مع النسيان يجازى عليه الإنسان وإنما يرفع عنه الإثم، فالنسيان يرفع به الإثم فقط.

السبب الخامس- اتباع وساوس الشيطان:

ترتب على نسيان آدم عهد ربه وفتوره عن الحفاظ لهذا العهد: اتباع الشيطان والخضوع لوساوسه، ونسيانه عداوته له وحسده والنكوب عن السجود له لمَاَّ أمر الله بذلك، قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠] ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠]. ونلاحظ الاختلاف الواقع في التعبير بين المواضع الثلاثة؛ ففي سورة البقرة قال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾، وفي سورة الأعراف قال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ أي: لآدم وحواء، وفي سورة طه قال: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى آدم دون حواء، وعدل عن حرف (اللام) في آية الأعراف إلى (إلى) في آية طه، ثم عدل في الآيات الثلاث عن الاسم (إبليس) الذي كان المرتكز في الحديث عن مسألة السجود لآدم إلى الصفة (الشيطان) هنا.. فما السر في ذلك؟

قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ (أزل) من الزلل، وهو من زلت القدم إذا تعثرت وانزلقت، وزل عن صهوة جواده: سقط، فالمعنى الحقيقي للزلل: التعثر والانزلاق والسقوط، وأزل صيغة أفعل المتعدية بالهمزة التي صيرت الفاعل مع (زل) مفعولاً، فآدم وحواء لم يزلا بأنفسهما بل هناك من حملهما على الزلل وأوقعهما فيه، فهو فاعل الزلل. و(أزل) تحتمل معنيين: المعنى الأول- المعنى الحقيقي الانزلاق أو التحول عن حال الثبات إلى حال أخرى، وتكون بمعنى الإزالة، وهذا إذا كان الضمير في (عنها) في قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦] عائد إلى الجنة في قوله قبله مباشرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ

١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل (مكتبة الخانجي، القاهرة) ٤/ ٤.

أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥)، وهنا يكون المعنى: أبعدهما، وهذا المعنى تؤيده قراءة من قرأ: ﴿فَأَزَالَّهُمَا﴾ ونسبها بعضهم إلى حمزة[1]، أي: نحاهما وأبعدهما عن الجنة. والمعنى الثاني مجازي، وذلك بإعادة الضمير في (عنها) إلى الشجرة، ويكون في هذه الحال عود الضمير إلى الأقرب، وعن تفيد التعليل، ويكون تقدير الكلام: فأزلهما الشيطان بسبب الشجرة، ويكون المعنى: أوقعهما الشيطان في الخطيئة والذنب بسبب الشجرة، وهو مجاز بالاستعارة؛ حيث استعار السقوط والانزلاق لارتكاب الخطيئة والوقوع في الذنب. ويمكن أن يحمل المعنى هنا أيضًا على الحقيقة بدليل قوله اللاحق مباشرة: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾، ويكون المعنى على هذا: فأبعدهما بسبب الشجرة فأخرجهما مما كان فيه من النعيم والحياة الرغدة في الجنة، و(أخرجهما) من قبيل التوكيد الذي يفيد التفخيم والتعظيم وبيان فداحة ما وقع.

وعلى المعنيين الحقيقي والمجازي لم يكن إبليس هو الفاعل الحقيقي، فليس له ولا من قدرته أن يخرج آدم وزوجه ويبعدهما عن الجنة، وليس له ولا من قدرته أن يوقعهما

---

١) يراجع: الأخفش، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري: معاني القرآن، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة (مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م) ١/ ٧٣. والزجاج: معاني القرآن وإعرابه، ١/ ١١٥. والسمرقندي: بحر العلوم، ١/ ٤٤. والثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي (دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م) ١/ ١٨٢. والماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي: تفسيره النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان) ١/ ١٠٦. والزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (دار الريان للتراث – القاهرة، ودار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م) ١/ ١٢٨. والقرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م) ١/ ٣١١... إلخ.

في الخطيئة التي تسببت في طردهما من الجنة، وإنما كان هو السبب فقط، متمثلاً ذلك في وسوسته التي ذكرها الله في قوله: ﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠، ٢١]، وفي قوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠]، وعلى هذا يمكن حمل الفعل (أزل) على المجاز المرسل، والعلاقة بين المعنى المجازي والحقيقي المسببية؛ حيث ذكر المسبب وهو الإزالة والطرد والإبعاد وأراد السبب وهو الوسوسة، لكن لماذا هذا العدول؟ وقع التعبير بالإزالة وليس الوسوسة لبيان سرعة تحقق الإرادة الإلهية، والإرادة الإلهية اقتضت أن يكون آدم خليفته في الأرض، وهو ما صدر الله به القصة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فكان لابد من إبعاد آدم وزوجه من الجنة؛ ليتحقق الهدف من خلقه، وهو: الاستخلاف، فعبر سبحانه بالمسبب (أزال) وأكد ذلك بـ(أخرج) واستخدم (الفاء) المفيدة للترتيب والتعقيب في قوله تعالى: (فأزلهما) (فأخرجهما) بعد تحذيره ونهيه لآدم وزوجه أن يقربا الشجرة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لتحقيق الإرادة الإلهية بالاستخلاف في الأرض سريعًا، وهذا لا يتحقق مع الوسوسة التي تقتضي القيام بالفعل (فعل الوسوسة)، وبذل الجهد في الإقناع بما يُوَسْوس به، ثم تفكير المُوسْوَس له في مضمون الوسوسة وهل تؤدي إلى النفع إن تم تنفيذ مضمونها، أو يقع الضر والإضرار؟ وهذا كله وغيره يقتضي وقتًا طويلاً، يتنافى مع إرادة الاستخلاف المصدر بها نص القصة.

لكن في الموضعين الثاني ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٠] والثالث ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ [طه: ١٢٠] ذكر الوسوسة؛ لأن السياق خلا من إرادة الاستخلاف، فلم يكن هناك داع للعدول عن الأصل.

وجاء الخبر في آية الأعراف يشمل آدم وحواء، على حين جاء في آية طه يشير إلى آدم وحده؛ وذلك راجع للسياق اللغوي؛ فالكلام في آيات الأعراف جاءت عن آدم وحواء معًا، على حين أن جاء الكلام عن آدم وحده؛ فكانت الوسوسة في الأعراف لهما معًا، وفي طه لآدم وحده؛ مراعاة للسياق اللغوي.

السبب السادس – حب الشهوات:

حب الشهوات مركوز في الطبيعة البشرية؛ ولذلك وقع آدم وحواء فيما وقعا فيه من نسيان أمر الله، فأكلا من الشجرة، فقد غلبتهما شهوة البطن، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢]. يقول الفخر الرازي: «إنما أقدما على الأكل لغلبة الشهوة لا أنهما صدقاه علما أو ظنا كما نجد أنفسنا عند الشهوة نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهيه وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال»[1].

١) فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ١٤/ ٢١٩.

المبحث الثاني
أنواع الاغتراب في قصة آدم

تتعدد أنواع الاغتراب في قصة آدم عليه السلام ما بين اغتراب معنوي واغتراب حسي، ويمكن أن نرصد هذه الأنواع على النحو الآتي:

النوع الأول- الاغتراب المعرفي:

وقع هذا النوع من الاغتراب من الملائكة بسبب استغرابهم واندهاشهم عندما أخبرهم الحق سبحانه بأنه سيخلق بشرًا ويجعله خليفته في الأرض، وهذا الاغتراب – كما سبقت الإشارة – ناتجٌ عدم الإحاطة بالأمر؛ لخفاء بعض أنواع العلم، لكن لما يقع العلم بالأمر، ويُحاط المُغَرَّب به علمًا.. يزول الاغتراب. وفي هذه القصة انقطع اغتراب الملائكة بأمرين: الأول- التنبيه المنطوي على لون من التحذير من الاعتراض على أمر الله، فلما قال الملائكة – في أسلوب يوحي بوقوع الاعتراض منهم -: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ردهم الله بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وبمجرد سماعهم ذلك انقطع اغترابهم وارعووا، وخضعوا لأمر الله تعالى راضين مطمئنين. والأمر الثاني- سوق الدليل والبرهان على الأمر للإقناع، مع أن الملائكة لم يكونوا في حاجة لهذا؛ لأنهم مخلوقات طائعة لأمر الله دومًا، لا تعصاه أبدًا، فساق الدليل تطمينًا لهم، ورحمة بهم، وتعليمًا للخلق، فالله العلي الذي لا يُسأل عما يفعل لا يحمل مخلوقاته على أمره حملاً، ولا يقهرهم عليه قهرًا، وإنما يقدم بين يدي أمره الدليل والبرهان؛ ليحمل المخَاطَب على قبول أمره بالإقناع لا الإكراه، وحتى يزيل ما قد يعل بالنفوس مما قد يعتريها من شك، حتى ولو كانت نفوسًا قوية في إيمانها. والدليل الذي ساقه الحق هو أنه علم آدم الأسماء كلها، أسماء الأشياء، ثم إنه عرض هذه الأشياء على الملائكة، فعرفها آدم وعرضها ولم يعرفها الملائكة: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ

بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

النوع الثاني- الاغتراب الشعوري:

ووقع هذا لآدم وزوجه لما نسيا أمر الله وأكلا من الشجرة: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، فإنهما لما أكلا من الشجرة بدت سوآتهما، أي: عورتهما، ورأى كل واحد منهما ما لم يره من الآخر قبل ذلك؛ فوقعا في الحرج، وانتابهما شعور بالحياء؛ لأن انكشاف العورة من الأمور المنكرة المستهجنة في الطباع، المستقبحة في العقول، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قيمة الستر في حياة الإنسان.

وزال هذا النوع من الاغتراب عن آدم وزوجه بما أنعمه الله عليهما وعلى ذريتهما من نعمة اللباس: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

وفي الآية اللباس ليس مقصورًا على اللباس الحسي، بل هناك لباس معنوي هو تقوى الله، والأول لصيانة الجسم، والثاني لصيانة الروح، وكلاهما حماية للإنسان وحفظ له، وكلاهما من الأهمية بمكان، وكلاهما يؤدي بالإنسان إلى الاستقرار النفسي والشعوري.

النوع الثالث- الاغتراب الروحي:

وهذا النوع من الاغتراب وقع لآدم وزوجه وابنه قابيل، وتمثل هذا في الشعور بالندم؛ فآدم وزوجه ندما على مخالفة أمر الله بالأكل من الشجرة وكان قد نهاهما عن الأكل منها: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وندما على اتباعهما لإبليس الذي

حذرهما منه: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقد انقطع هذا الاغتراب بالتوبة التي أحدثها آدم وزوجه، فقد اعترفا بذنبهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]؛ ونتيجة لهذا الندم والاعتراف بالذنب تاب الله عليهما – وإن خص آدم هنا بالذكر –: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]، ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

والندم وقع كذلك من ابن آدم قابيل بعد قتله أخاه، وهو ندم لم يؤد إلى التوبة: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣٠-٣١].

فندم قبيل كان لعجزه وتقاصر علمه عن علم الغراب، فهو ندم ينطوي على الحسد أيضًا، وهذا إن دل فإنما يدل على أن نفسه الجشعة التي ارتكبت هذا الإثم الفظيع لم تنقطع عن تطلعاتها، إن الآيات لتتدسس خصال هذه النفس الخبيثة، وتكشف عما تنطوي عليه من طمع وخسة. وقيل: إنه ندم على حمله بعد قتله والسير به في البراري لا يدري ما يفعل بجثته، وجاء ندمه بعد رؤيته فعل الغراب؛ لذلك فهو ليس ندمًا على قتله بل ندمٌ لأنه أتعب نفسه بحمله والسير به، مع أن عملية قبره كانت ميسورة سهلة.

والدليل على أن هذا الندم لم يكن ناشئًا عن توبة صادقة: أنه لم ينفعه ندمه هذا، فقد جاء في الصحيح «ما من نفس تقتل ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ ذلك لأنه أول من سن القتل»[1].

١) أخرجه: الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م)

النوع الرابع- الاغتراب المكاني:

في قصة آدم وقع هذا النوع من الاغتراب لإبليس وآدم وحواء؛ حيث إنهم جميعًا أخرجوا من جوار ربهم ومن جنته؛ فإبليس لما ارتكب ما ارتكب من معاصٍ وتكبر على أمر الله طرده الله عن جواره ومعيته، فـ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]. و﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨]. و﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]. و﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

والإبعاد المكاني لا شك يترتب عليه العديد من المشاعر المشوبة بالوحشة، وهذه الوحشة يجدها كل من تغرَّب عن وطنه، ولابد أن إبليس وقع في هذه الوحشة، وخصوصًا أن المكان الذي تغرب عنه ليس كأي مكان، إنه جوار الله الرحيم العظيم، وذكروا أن «الأمر بالهبوط منها أمر بالخروج من الأرض إلى جزائر البحور؛ لأن الأرض هي قرار أهلها وجزائر البحور ليست مكان قرار لأحد؛ ليكون فيها على الخوف أبدًا؛ ألا ترى أنه قال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١] والبحار مما تميد بأهلها. وأمكن أن يكون الأمر بالهبوط منها أمرًا بالخروج من الصورة التي كان فيها إلى صورة أخرى ... لتركه أمر الله وارتكابه نهيه ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ في تلك الصورة أو في تلك الأرض؛ حتى لا يقر أبدًا، ويكون على خوف أبدًا»[1]، فالهبوط – على هذا – حسيٌّ ومعنويّ.

٧/ ١٩٣، حديث رقم: ٤١٢٣. والترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م) ٥/ ٤٢، حديث رقم: ٢٦٧٣، وقال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

١) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ٤/ ٣٦٩، ٣٧٠.

ولم تكن الوحشة هي الإحساس الوحيد الذي أصاب إبليس نتيجة التغريب المكاني الذي وقع له، بل كتب الله عليه: الصغار، أي: الذل والمهانة. والذأم، أي: الذم والمقت. والدحر، أي: النفي والإبعاد. والرجم، أي: الرمي، واللعنة، أي: الطرد من رحمة الله والإبعاد عن كل خير، وهذا مما يعمق الإحساس بالغربة والألم النفسي، فيبقى المخلوق المغرَّب معذبًا أبدًا.

و«وجه صغاره: أنه ما من أحد ذكره إلا وقد لعنه، ودعا عليه باللعن، فذلك صغاره، وأمكن أن يكون صغاره؛ لَمَّا صيره بحال يغيب عن الأبصار، ولا يقع عليه البصر، أو لَمَّا طرده عن رحمة الله»[1].

ولسائل أن يسأل فيقول: إذا كان ما ذكر من إخراج الله لإبليس من السماء أو من الجنة أو من جواره ورد في إطار قصة واحدة، فلماذا اختلفت العبارات من سورة إلى سورة أخرى؟

والجواب – كما قال الخطيب الإسكافي – «أن اقتصاص ما مضى لم يقصد به أداء الألفاظ بأعيانها، وإنما المقصود ذكر المعني، فإن الألفاظ إذا اختلفت وأدت المعنى المقصود كان اختلافها واتفاقها سواء»[2].

إن من يتأمل الآيات سيجد فوارق دالة على الأداء الإعجازي للقرآن الكريم، ففي آية الأعراف مظهر من مظاهر الاغتراب هو الصغار ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ وهو مشاكل للتكبر المنصوص عليه في الآية ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فالمتكبر لا يستحق إلا الصغار والذل والامتهان والتحقير؛ فلما تكبر إبليس استحق هذا الصغار، و«حكم عليه بضد المعصية التي عصى بها وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل عليه بخلاف

١) الماتريدي: تأويلات أهل السنة، ٤/ ٣٧٠.

٢) الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني: درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، (جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م) ٢/ ٥٧٢.

شهوته وأمله»[1]، «وهكذا كل من تردى برداء الاستكبار عوقب بلبس رداء الهوان والصغار. ومن لبس رداء التواضع ألبسه الله رداء الترفع»[2].

وفي الآية الأخرى من الأعراف ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ نجد أنه لما تمادى إبليس في عناده وكبره وإصراره على مخالفة أمر الله، زادت حدة الكلام في مجابهته، ففي الآية السابقة: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ النبرة أخف حدة من النبرة في الآية هنا، لقد ازدادت الحدة بشكل لافت، وتبدى ذلك في كلمتي: مذءوم – مدحور، وفي الجزم والقطع الحاسمين لأمر الإخراج من خلال وجازة العبارة بخلاف الآية الأولى التي يطول فيها الحديث، وكأن الحق سبحانه يسوق الكلام تذكيرًا وتنبيهًا لهذا الإبليس لعله يرجع ويعتذر عما بدر منه، لكن لما تمادى في غيه وعناده وأطال الجدال مع الله وأصر على مخالفة الأمر و﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] و﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] جاء الرد بالطرد الحاسم: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ بأشد الكلمات (مذءومًا)، أي: «مذموما بأبلغ الذم»[3]، و(مدحورًا) أي: مطرودًا مبعدًا مع الإهانة؛ لأن الدحر في اللغة: الطرد والإبعاد على وجه الهوان، فجاءت العقوبة على قدر الإنكار، وكذلك نبرة الكلام.

وأما موضع سورة الحجر: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥]، فقد عبر الحق بالرجم واللعنة، واكتفى بـ(اخرج) تاركًا

---

١) أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ) ٢/ ٣٧٩.

٢) الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله: فتح القدير، (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه) ٢/ ٢١٨.

٣) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: التفسير الوسيط، ٢/ ٣٥٦.

(اهبط)، وكذلك موضع سورة ص: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ غير أنه سبحانه أضاف اللعنة إلى ذاته فقال: (لعنتي).. فما السر وراء كل هذا؟

في هذين الموضعين زادت الحدة، فالإخراج مصحوب بالرجم واللعنة الممتدة إلى يوم القيامة، والرجم: الرمي بشدة وقسوة، والرجم: السب والشتم، والرجم: الضرب بالحجارة. واللعن: الطرد مصحوبًا بالعذاب.. فنلاحظ التدرج في العقوبة: إهباط، أي: الإنزال من الأعلى إلى الأسفل، ومن الرفعة إلى الضعة، ثم تطورت العقوبة إلى الإخراج مع الصغار (الذل)، ثم الإخراج مع أشد الذم والدحر (الرمي) والإهانة، ثم تطورت إلى الإخراج مع الرجم واللعن بما فيهما من ألم بدني ونفسي.

وفي آية الحجر أطلق (اللعنة) فهي كائنة من الله ومن غيره، أما في آية ص فقد قيدت بالإضافة إلى رب العزة؛ وذلك أن سياق آية الحجر عبر فيه الحق عن عصيان إبليس بالإباء والرفض فقط: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨-٣٣]، لكن سياق آية ص عبر عن هذا العصيان بالكبر والكفر والعلو: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١-٧٦]، أي: أن التحدي لأمر الله أكثر بروزًا في آيات ص؛ ولذلك أضاف الحق اللعنة إليه؛ ليعلم هذا المأفون أنه بذاته العلية هو من سيعاقبه ويعذبه على تكبره وجحوده وتعاليه، ولم يترك لأحد من خلقه مشاركته هذا الأمر كما في سورة الحجر، وهذا من أقسى العقوبة وأشدها.

والاغتراب المكاني حصل لآدم وحواء، وورد هذا في أربعة مواضع، فقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]. وقال: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٦]. و﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤]. ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

وأول ما يلفت النظر في الآيات أن التغريب هنا جاء على درجة واحدة من العقوبة، وهي: الهبوط، أي: النزول من العلو إلى الدنو، ومن الرفعة إلى الضعة، أو أن «الهُبوط بضم الهاء: النزول، وبفتحها: موضع النزول، وقال المفضل: الهبوط الخروج من البلدة، وهو أيضًا دُخولها، فهو من الأضداد، وإذا كان الهبوط في الأصل هو النزول، كان الدخُول إلى البلدة لسكناها نزولاً بها، فصار هُبوطًا»[1]، هذا بالرغم من أن الأمر في الآيات جميعًا يشمل إبليس مع آدم وحواء، ولم يقترن التغريب – هنا – حتى بالإخراج الذي قد يشتم منه رائحة الطرد، حتى هذا لم نجده، وهذا – والله أعلم – من التكريم لآدم وزوجه؛ لأنهما ارتكبا ما ارتكبا من ذنب لا عن عمد بل عن نسيان، ثم إنهما لم يصرا على الذنب بل تابا وأنابا وندما على عصيان الأمر الإلهي، ثم إنهما لم يستكبرا، فكل هذا خفف عنهما عقوبة المخالفة بخلاف إبليس الذي أصر وأبى واستكبر وجحد، فاستحق أن يكون إهباطه مصحوبًا بكل ألوان الإذلال والامتهان والتعذيب النفسي والبدني إلى يوم القيامة.

ثم إن الحكمة من الهبوط هو ما قدمه الحق سبحانه في صدر القصة في سورة البقرة من أنه خلق آدم لخلافته في الأرض وعمارتها، وإنما ابتلاه الله بما ابتلاه من إسكانه الجنة ونهيه عن الأكل من الشجرة، ونسيان آدم النهي بسبب وسوسة إبليس؛ ليعلمه مدى عداوة إبليس له ولذريته، وليعلمه أن رحمة الله قريب منه حتى وإن أخطأ، فما عليه إلا أن يتوب، وليعلمنا نحن أن الإصرار على الذنب والكبر مهلكة، لكن الاعتراف بالخطأ والإسراع بالرجوع عنه والتوبة فضيلة، وهو الطريق الذي يجب أن ينتهج.

١) الماوردي: تفسيره النكت والعيون، ١/ ١٠٧.

المبحث الثالث
التجليات الفنية للاغتراب في القصة

كان لظاهرة الاغتراب في قصة آدم عليه السلام تجلياتها في جميع مكونات النص الصياغية؛ فكان لها انعكاسها في الناحية الصوتية (الإيقاع)، وفي المعجم والصيغ، وفي الأبنية والتراكيب، وفي الأساليب، وفي أبنية القص.

وسأحاول في هذا المبحث رصد هذه التجليات، وذلك على النحو الآتي:

أولاً- تجليات الاغتراب في الإيقاع:

إن أول شيء نحسه من القرآن الكريم إيقاعه، وهو «النظام الصوتي البديع الذي قسِّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه، وزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعًا بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النَّفَس فيه آنًا بعد آنٍ، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى فيجد عندها راحته العظمى»[1].

وهذا الإيقاع المتفرد يتلون بالسياق المقامي واللغوي والمعنى المتوخى؛ ارتفاعًا وانخفاضًا، شدة ورخاوة، جهرًا وهمسًا؛ ولذلك فقد انعكست ظواهر الاغتراب في هذا الإيقاع؛ فجاء متوافقًا مع المواقف.

ونحن نعلم أن الاغتراب ظاهرة قائمة على الصراع، سواء أكان داخليًّا أم خارجيًّا، فالإيقاع ترتفع حدته إذا ما احتدم الصراع واشتد، وإذا ما انخفضت حدته انخفض، وهذا واضح جلي في قصة آدم عليه السلام.

فنجد الإيقاع في أعلى درجاته عندما دخل إبليس في حوار مع ربه، هذا الحوار الذي يشكل لونًا من الصراع الداخلي الخارجي، ولنقرأ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ

١) عبد الله دراز: النبأ العظيم – نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني (دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) ص١٣١.

أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١١-١٨].

فالإيقاع بدأ في الآية الأولى هادئًا ثم بدأت وتيرته تزداد مع تقدم الحوار؛ نظرًا لاختلاف المقامات، فالآية الأولى إخبار من الله لنا بأنه خلقنا وصورنا وأمر الملائكة بالسجود فامتثلوا إلا إبليس، وهذا الخبر لا يعوزه إيقاع جهير؛ لإنه مجرد إعلام بأمر وقع، وليس فيه من صراع يقتضي جهارة الإيقاع، ومما يؤكد هدوء الإيقاع في الآية كثرة أصوات الهمس، وخصوصًا السين، لكن مع بدء الحوار بين الله العلي وإبليس بدأت نبرة الإيقاع ترتفع تدريجيًّا، وبدأ الحوار بهذا السؤال المقتضب من الحق سبحانه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فوجازة السؤال، واستخدام (ما) و(ألا) دون (أنْ) فقط وهذا المد المفتوح الدال على انفتاح الصوت وامتداده وجهارته؛ إذ المد عمومًا يتمتع بسمتين: الاستطالة الزمنية والجهارة، وهما أكثر بروزًا في المد بالفتح، بالإضافة إلى غلبة الأصوات المجهورة على المهموسة، كل هذا دفع بالإيقاع إلى الارتفاع؛ ليناسب الموقف الذي بدأ يحتدم بين الله العلي وإبليس، فالاستفهام استنكاري توبيخي؛ إذ كيف لعبد أن يعصى أمر سيده، خصوصًا إذا كان هذا السيد هو الله الخالق والمنعم، والاستنكار والتوبيخ يناسبهما الإيقاع الجهير.

ومع هذا فالإيقاع ما زال في أول درجات ارتفاعه وجهارته، فكلما تقدم الحوار زادت حدته وجهارته؛ ليناسب ازدياد حالة التوتر المتطورة، فكان رد إبليس المتمادي في غيه على سؤال الحق الاستنكاري التوبيخي: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فنحس بازدياد حدة الإيقاع، ودليل ذلك زيادة أصوات المد عما جاء في السؤال، والتكرار لـ (خلقت) مرتين و(من) ثلاث مرات، وغلبة الأصوات الجهيرة على الأصوات

المهموسة الرخوة، وهذا الإيقاع بهذا يدل على أن نبرة صوت إبليس علت عن نبرة صوت الحق، وهذا مما يدل على سوء أدبه؛ لأنه ما كان له أن يتجاوز قدره وهو في الحضرة الإلهية، وما كان لعبد أن يتجاوز حده مع سيده، فيرفع صوته في حضرته، لكن تلبثت به حالة من المكابرة حملته على ذلك، والمتكبر – وإن بدا منتفخًا – يعتريه شعور بالنقص، فهو يعوض هذا الشعور برفع صوته والتقعر في الكلام، فترتفع نبرة الإيقاع عندما يتكلم، وهذا ما حصل هنا، ومن ثم جاء الإيقاع معبرًا عن الحالة الشعورية الناشئة عن الإحساس بالنقص المؤدي للكبر والتعالي، وهو إحساس ينتج عنه اضطراب نفسي، كما أنه يمثل ظاهرة من ظواهر الاغتراب.

ونظرًا لهذا التمادي والإصرار على المخالفة للأمر الإلهي، جاء الرد الإلهي بطرد إبليس وإبعاده: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وكان من المتوقع أن يأتي الإيقاع صاخبًا، لكن بدا في المجمل هادئًا، وهذا ما تحسه الأذن، ويتأكد من خلال غلبة الأصوات المهموسة على الأصوات المجهورة، فنجد صوت الفاء يتكرر أربع مرات، والهاء المعروف بوهنه يتكرر ثلاث مرات، والكاف يتكرر أربع مرات، والتاء مرتين، بالإضافة إلى الخاء والصاد، وما نحسه من بروز الإيقاع في بعض المواطن في نحو: منها، فما، فيها، اخرج بنطقها الحاد، والصاغرين باستطالة الصوت وجهارته، فقد جاء هذا بغرض التحسير والإذلال لإبليس؛ جزاء المخالفة والإصرار عليها.

لكن، لماذا مال الإيقاع في المجمل إلى الهدوء مع أن الموقف يقتضي الجلبة والصخب؟ مال الإيقاع للهدوء لأن المتكلم هو الله بجلاله وعظمته، وهو غني في رده عن الصوت الجهير، وإبليس أحقر من أن يعتدَّ به أو يعيره اهتمامًا يستدعي حدة الصوت أو ارتفاع نبرة الكلام، ثم إن الحوار ما زال في أوله؛ ولذا جاء الإيقاع هادئًا.

ويستمر إبليس في عناده وسوء أدبه، ويستمر الإيقاع واضحًا لكنه مال أحيانًا إلى التباطؤ نتيجة الاسترسال في الرد؛ تعبيرًا عما اعتوره من توتر جراء وقوعه فيما وقع فيه، ونتيجة لمراجعته ربه المرة تلو المرة كما هو ماثل فيما عرضناه، وماثل أيضًا في الآيات: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾؛ نتيجة لهذا الإصرار وتلك الوقاحة جاء الرد حادًّا وحاسمًا للجدل: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في إيقاع هادر، وهذا الإيقاع يناسب الفصل والحسم، حتى لا يستمر التمادي وسوء الأدب، ومما يدل بروز الإيقاع تلك الكلمات واضحة الوقع في الأذن: اخرج، مذءومًا، مدحورًا، لأملأن، جهنم، وكثرة المدود، وغلبة الأصوات المجهورة، كل هذا ليؤكد على حدة النبرة،

وهكذا في كل المواطن الذي وقع فيها الحوار بين الله وإبليس اللعين، نجد الإيقاع صاخبًا؛ تعبيرًا عن توتر الموقف واحتدامه، ولنستمع إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: ٣٢-٤٣]

فمقومات الإيقاع الجهير متوافرة في الآيات السابقة، يتمثل ذلك في: كثرة المدود، والفاصلة التي يتبادل في نهايتها صوتا النون والميم، وهما صوتان جهيران، النون ذلك الصوت الأسناني اللثوي الأنفي المجهور المسبوق غالبًا بمد الكسر (الساجدين – الدين – المنظرين – أجمعين – الغاوين – أجمعين)، ومد الضم في مرتين (مسنون – يبعثون)، والميم ذلك الصوت الشفوي المجهور المنفتح المسبوق بمد الكسر مرتين (رجيم – مستقيم) ومد الضم مرة (المعلوم)، وهذا يؤكد على ارتفاع نبرة الإيقاع، وهو إيقاع أفقي إن جاز لي هذه التسمية وهو في مقابل الإيقاع الرأسي الذي يكون مع المد بالفتح، زد على مقومات أخرى من كثرة الأصوات المجهورة والشديدة والانفجارية داخل اللوحة، وهذا الإيقاع يتناسب مع هذا الموقف الذي يسوده الحنق والغضب من الله على إبليس وحالة الغطرسة والتوتر والعنجهية الفارغة المسيطرة على إبليس.

والملاحظ أن الحوار في جانب الله العلي غلبت عليه الجمل الموجزة السريعة، وهذا يشكل إيقاعًا بارزًا دالاً على الحسم والحزم في مجابهة هذا المارق، وفي الوقت نفسه تدل على عدم الاعتناء، ولنسمع: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ - ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ - ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ... إلخ، ونلاحظ إيقاع نهاية الفاصلة في الآيات الثلاث الذي جاء معتمدًا على المد الطويل بالكسر في (رجيم) و(الدين) و(المنظرين).. هذا الإيقاع الممتد الذي يتساوق مع الفترة الزمنية الممتدة التي منحها الله له؛ إذ مد في أجله إلى يوم البعث.

لكن الحال مع إبليس أنه غلب على جمله الاسترسال والإطالة، وهذا ديدن الجَدِل الذي يعلم علم اليقين في قرارة نفسه أنه على الباطل، لكن يمنعه الكبر من الإقرار بهذا، وهو في الوقت نفسه يريد أن يثبت لنفسه ولغيره أنه محق، فيدفعه ذلك إلى أن يثرثر ويطيل؛ وتلك حالة ناشئة عن صراع معتمل بين هذا النوع من الأشخاص وأنفسهم، أنفسهم التي تقر بأنهم على باطل وهم الذين يمنعهم كبرهم من الرجوع عن هذا الباطل، ولنستمع إلى عبارات إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ - ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ - ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ - ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ - ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وإذا ما جاءت بعض عبارات الحق سبحانه مسترسلة وعبارات إبليس موجزة على خلاف المعتاد فلمناسبة الموقف، ففي قول الحق ردًّا على طلب إبليس بالإنظار ليغوي آدم وذريته عن طريق الله الحق: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله: ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ

وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ وقوله: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إنما جاء الاسترسال في هذه الآيات من قبل الحق لأن الأمر لم يعد يتعلق بإبليس وحده بل تجاوز إلى هذا المخلوق الذي كرمه فخلقه بيديه وتجاوز إلى ذريته معه، فقد أعلن إبليس عن عداوته السافرة لآدم وذريته؛ لذا – ورحمة منه سبحانه – شملهم الخطاب الإلهي؛ تنبيهًا لهم وتحذيرًا من اتباع إبليس؛ لما يترتب على ذلك من الخسران والبوار.

لكن، ومع هذا الاسترسال، نجد نبرة الحسم والحزم هي السائدة في الخطاب، والإيقاع الهادر هو المسيطر، وهو ما يتلاءم وسياق التحذير والوعيد والقطع في الأمور المسيطر على الخطاب؛ لأن الخطاب يتعلق بالقضية الأساس التي إن صحت صح ما بعدها، وإن فسدت فسد ما بعدها، ألا وهي قضية الإيمان والشرك، قضية الطاعة لأمر الله والفسوق عنه، قضية الخضوع لله أو لغيره؛ فمن ثم جاءت النبرة حاسمة والإيقاع كصوت القصف مرعدًا.

وفي قول إبليس: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ جاءت العبارة موجزة؛ لأنه لما أسقط في يديه، دفعه حقده وحسده على آدم الذي تسبب في فسوقه أن يطلب هذا الطلب في سرعة؛ بغية الانتقام من آدم، فإن فاته لزوم الطاعة فلا يفوته الانتقام ممن تسبب في فسوقه عن الطاعة.

وفي قصة ابني آدم تغير الإيقاع هدوءًا وارتفاعًا بتغير الأشخاص والمواقف، فمع حالة الحنق والغضب التي سيطرت على قابيل الحاقد على أخيه الحاسد له جاء الإيقاع حادًّا مرتفع النبرة، حيث جاء خطابه في عبارة موجزة جدًّا: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ سيطرت عليها الحروف المجهورة، فقط حرفان مهموسان وبقية الحروف مجهورة، وهو إيقاع ينم عن حسم وحزم من قابيل فيما هو مقدم عليه من جريمة شنعاء ليس في حق أخيه بل في حق البشرية جمعاء، ويدل على شخصية متوترة متهورة، وهذا ديدن الشخصيات الشريرة، خطابهم حاد النبرة صاخب الإيقاع في سعي منهم لإخفاء ما يعتمل في نفوسهم من توتر، ويؤكد هذا

قول قابيل في نهاية المشهد بعد انتهائه من فعلته الشنيعة: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ فجاء الإيقاع صاخبًا يشبه الصرخات أو قل: الولولات، وخصوصًا في بداية الخطاب (يا) بما تشتمل عليه من امتداد صوتي بسبب المد المفتوح، و(ويلتا) معنى ولفظًا؛ معنى بما تتضمنه الكلمة من الدعاء بالهلاك على نفسه، ولفظًا بما تشتمل عليه من امتداد صوتي بسبب المد المفتوح، وغلبة الأصوات الجهيرة على الهامسة، ويستمر الإيقاع جهيرًا لكن بشكل أقل مع استمرار قابيل في كلامه، إنها النفس المضطربة القلقة المتوترة المتهورة.

في المقابل هدأ الإيقاع ومال إلى التكسر مع هابيل تلك الشخصية المؤمنة المطمئنة المتزنة، فجاء خطابها متدفقًا مسترسلاً: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧-٢٩]، ولكن نشعر بارتفاع نبرة الإيقاع رويدًا رويدًا في الآية الأخيرة ويزداد مع الفاصلة الأخيرة ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾؛ لأن الآية الأخيرة انطوت على وعيد مغلف بلغ مداه مع هذه الفاصلة؛ إذ إنها حملت الوعيد إشارة إلى العقاب الشديد، هو عقاب الظالمين، ومما يؤكد ارتفاع نبرة الإيقاع في الآية الأخيرة ليتناسب مع جو الوعيد والتهديد؛ كثرة المدود (أحد عشر مدًّا) بما للمد من جهارة صوتية واستطالة إيقاعية، وكذلك غلبة الأصوات المجهورة على المهموسة، بالإضافة إلى تكرار كلمة (إثم)، وهذا بخلاف بداية الخطاب مع حديث هابيل عن أن الله تعالى يتقبل العمل من المتقين، وأنه إن مدّ قابيل يده إليه فإنه لن يفعل مثله؛ لأنه يخاف الله رب العالمين، في كل هذا جاء الإيقاع هادئًا موائمًا لحالة الهدوء النفسي والسكينة والطمأنينة التي تعلو هابيل، ولك أن تتأكد من هدوء الإيقاع من خلال تكرار صوت التاء المهموس بكثرة، وتكرار صوت السين، وكلمت (بسطت) بنطقها الهامس ودلالتها الانسيابية.

وهكذا، كان للإيقاع دوره في التعبير عن ظواهر من الاغتراب التي وقعت فيها شخصيات القصة؛ بسبب أفعالهم وانحرافاتهم.

ثانيًا- تجليات الاغتراب في المعجم:

يكثر في معجم قصة آدم المفردات المتقابلة؛ فنجد مفردات ذات حقول دلالية سلبية وهي المفردات التي تعبر عن الاغتراب ومظاهره، يقابلها مفردات ذات حقول دلالية إيجابية تعبر عن حال ما قبل وقوع الاغتراب أو حال السكينة والطمأنينة والاستقرار، وهذا التقابل من شأنه أن يعمق آثار الاغتراب بعد وقوعه؛ لأن التضاد يبرز الأمور ويوضحها، فبضدها تتميز الأشياء، فمعجم ما قبل الاغتراب ينتمي إلى حقول دلالية متعددة، منها الروحي، مثل: التسبيح – التحميد - السجود – اتباع الأمر – التقوى – لا يضل – لا يشقى – القبول – التقوى – الخوف من الله، ومنها المادي، مثل: السكن – الجنة – الرغد – الشجرة – اللباس – خير – ألا تجوع – لا تعرى – لا تظمأ – لا تضحى – القربان.

ومعجم ما بعد وقوع الاغتراب ينتمي إلى حقول دلالية معنوية، مثل: الإفساد - الإباء - الاستكبار – الكفر – العداء – الذأم (التحقير والعيب والذم) – الصَّغَار – الغواية – الغرور – العداء المبين - الظلم –الفناء – الفتنة – اللعنة – التزيين (الخداع) – الفسوق – الشقاء – العصيان – الشيطان - الضلال – الإثم – الخسران – العجز – الندم، وكذلك ينتمي إلى حقول مادية حسية، مثل: سفك الدماء - الزل – الخروج – الهبوط – الأرض – الدحر – جهنم – السوأة – الاستفزاز – المتاع الفاني – نزع اللباس- الرجم – احتناك الذرية (السيطرة عليها واستمالتها واستئصالها) – الاستفزاز – الإجلاب (الاحتشاد والإعنات) – المشاركة في الأموال والأولاد –الجوع – العري – تضحى - الظمأ – النار.

ونلاحظ مما عرضناه من معجم ما يلي:

١ – أن المفردات ذات الدلالة السلبية المعبرة عن ظاهرة الاغتراب أكثر من المفردات ذات الدلالة الإيجابية المعبرة عن ظاهرة الاستقرار والاطمئنان والسكينة، وهذا يدل على أن شخصيات قصة آدم عليه السلام يعيشون حالات من الاغتراب في العموم.

٢ – كشف المعجم أن الاغتراب ليس ماديًّا فقط، بل منه المادي والمعنوي، والمادي أنواع، هي:

أ- الإزلال والإهباط والإخراج والدحر، أي: التحويل عن الموضع، وهو هنا بفعل فاعل، أي: تحويل الشخص وإبعاده عن مكانه بالإكراه (اغتراب الشخص عن غير إرادته).

ب- الوقوع في الحرج الناشئ عن العري ونزع اللباس وظهور (السوأة) أي: العورة، وزوال اللباس وظهور عورة الإنسان مما يوقعه في حرج شديد وشعور بالوحشة عظيم؛ مما يمثل حالة من أعظم حالات الاغتراب.

ج- الوقوع في العنت والمعاناة الناشئ عن الرجم (القذف بالحجارة) أو الاستفزاز، أو الإجلاب، أي: احتشاد الغير على الشخص والجمع له لإيذائه ومحاربته؛ بغية السطو على مقدراته وأهمها: الأموال والأولاد (المشاركة في الأموال والأولاد)، أو استمالة الذرية وإغوائهم أو استئصالهم (احتناك الذرية) و(سفك الدماء).

د- الجوع والظمأ والإضحاء، أي: الشعور بالحر، وكل هذا يمثل نوعًا آخر من أنواع العنت والمشقة، وهو ظاهرة من ظواهر الاغتراب.

هـ- دخول جهنم – النار، وهذا أعلى درجات الاغتراب؛ إذ دخول جهنم معناه الخسران المبين.

٣- والاغتراب المعنوي كذلك – كما كشف المعجم – أنواع، هي:

أ- الإباء (الرفض) والاستكبار والكفر والعصيان، وهو ما يسبب نوعًا من النفور من الشخص الذي يتسم بهذه الصفات، حالة النفور تنعكس على هذا الشخص فيشعر بالاغتراب الشعوري.

ب- العداء والعداء المبين، العداوة بالعموم ينشأ عنها صراع يتسبب عنه بالضرورة إحساس بالخوف والاغتراب.

ج- الذأم والصغار واللعنة بما تنطوي عليه هذه الحقول الدلالية من إذلال وتحقير وعيب وذم وامتهان، وهذا يتسبب للشخصية التي يقع لها ذلك في إحساس عارم بالاغتراب.

د- الغواية والفتنة والفسوق والعصيان والشيطان والضلال والإثم، كل هذه المفردات تعبر عن الانحراف عن جادة الصواب، وعن السبيل القويمة، وهذا الانحراف يوقع صاحبه يقينًا في الاغتراب المادي والمعنوي معًا.

هـ- الغرور والتزيين يترتب عنهما وقوع الشخص في الخديعة، فيعيش في اغتراب غير ظاهر، وهو - في رأيي – أقسى أنواع الاغتراب؛ لأنه حينما تتكشف الأمور وتظهر على حقيقتها يشعر المخدوع بحسرة ما بعدها حسرة؛ لأنه حينئذٍ يكون قد خسر كل شيء، ولا يستطيع أن يتدارك لأن الأوان قد فات، وهذا واضح في قصة آدم؛ حيث إن إبليس غرَّ آدم وزوجه وزين لهما الأكل من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، فلما وقعا في الخطيئة طردا من الجنة وأخرجا منها إلى الأرض، ولم يستطيعا التدارك، فقد وقعا في المعصية وفقدا هذا السكن إلى الأبد، فأورثهما ذلك حزنًا وانكسارًا، ولولا توبتهما وندمهما لبقيت حسرة اغترابهما أبدًا.

و- الظلم، ومن أعظمه ظلم النفس، وهو ما وقع فيه آدم وزوجه لما أكلا من الشجرة، وتسبب عنه أحوال من الاغتراب النفسي والمادي، سبق الكلام عنها.

ز- الخسران والعجز والندم، وهذا دليل على إحساس بالضعف يتولد عنه إحساس بالاغتراب.

ح- الفناء، وهو الاغتراب الأكبر.

ثالثًا- تجليات الاغتراب في الأبنية والتراكيب والأساليب:

انعكست ظاهرة الاغتراب في أبنية القصة وتراكيبها وأساليبها، فوظف القول الحكيم أسلوب الاستثناء (القصر) للتفريق بين حالتي الاستقرار والاغتراب، يمثل الحالة الأولى الملائكة ويمثل الثانية إبليس: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] فالملائكة بقوا على حالهم من الثبات على الطاعة في توائم تام مع المهمة التي خلقوا من

أجلها، فبقوا بناء على هذا في حال من الاستقرار النفسي والحياتي، ولم يخالف عن ذلك إلا إبليس فتحول من حال الطاعة والاستقرار إلى العصيان والاغتراب، ونلاحظ التدرج في البلوغ إلى حال الاغتراب، بدأت الرحلة إلى الاغتراب بالإباء، أي: الرفض، وكان الرفض لأمر الله له بالسجود مع الملائكة لآدم، ومن بعد الرفض أو مقترنًا به كان الاستكبار، والكبر أبشع من الرفض المجرد، فالكبر يحمل في طياته الترفع والتحدي، والنتيجة الحتمية لرفض الأمر الإلهي والاستكبار هو الكفر، والكفر هو تغطية الفطرة الإيمانية والجحود لأمر الله ونعمه وفضله، والشخص الذي يصل إلى هذه الدرجة يقع في دائرة الاغتراب الروحي والجسدي لا شك في ذلك، وإن بدا للناظرين غير ذلك، وإبليس أبرز من يمثل هذه الحال من الاغتراب.

وانظر مدى حالة الاستقرار التي يتمتع بها الملائكة والتي تبدت جلية من خلال التعبير الموجز جدًّا: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾، فبمجرد أن صدر لهم الأمر: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ نفذوا: ﴿فَسَجَدُوا﴾ بالفاء الدالة على الترتيب والتعقيب، في إشارة إلى سرعة الملائكة في تنفيذ الأمر دون أدنى تردد، فهنا اجتمع الإيجاز مع الأمر مع الفاء مع التكرار لبيان ثبات الملائكة على الطاعة والمسارعة إليها، وهو ما يدل على حالة الاستقرار النفسي التي تتمتع بها الملائكة. هذا بخلاف إبليس الذي طالت في حقه العبارة: ﴿إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ وتعددت أوصافه الإباء والاستكبار والكفر، وهذه التحولات تدل على نفس مضطربة غير مستقرة، ولاحظ أن الحق قال: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل: (وكفر)، فلم؟ يحتمل أن يكون سبق في علم الله أنه سيعصي الأمر الإلهي ويستكبر عنه[1]، ويفسره قوله تعالى للملائكة في الآية السابقة على هذه الآية: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣] «يعني: ما أسر إبليس في نفسه من الكبر»[2]. ويحتمل أن تكون (كان) بمعنى: صار، فيكون ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بمعنى:

١) يراجع: مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي: تفسيره، تحقيق: عبد الله محمود شحاته (دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ) ٣/ ٦٥٣.

٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان، ١٨/ ٤١.

(وصار من الكافرين)، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، أي: فصار من المغرقين؛ «إذ لم يكن من المغرقين في الأزل»[١].

ووظف الأساليب الإنشائية: النداء ﴿يَا آدَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، والأمر ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] و﴿كُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥] ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [الأعراف: ١٩] والنهي ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥] [الأعراف: ١٩] فبدأ الخطاب بنداء آدم نداء البعيد، وهو ليس ببعيد، والغرض من ذلك زيادة التنبيه له، وزيادة التنبيه دليل على أهمية الأمر المنبه عليه، وهو: الأمر بالسكن المدعم بالتوكيد اللفظي (أَنْتَ)، والأمر بالأكل الرغد حيث يشاء هو وزوجته، وهذا العيش الرغيد في مكان ذي خصوصية هو الجنة، التي أخبر الله آدم أنه فيها لن يشقى ولن يجوع ولن يعرى ولن يظمأ ولن يضحى، وكل هذا النعيم يتحقق له بشرط ألا يقع في حبائل إبليس وألا يسمع لوسوسته، فقال الله تعالى له محذرًا: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٧-١١٩]، وقد انعكس الجو التحذيري في التراكيب فجاءت مدعمة بكل الآليات التي ترفع درجة الحذر عند آدم؛ فالبداية كانت بالنداء بالأداة (يا) الموضوعة لنداء بامتدادها الصوتي وجهارتها للتنبيه الشديد، والتوكيد بعد التوكيد؛ التوكيد بـ(إن) و(أن) أربع مرات، والتوكيد بالجار والمجرور (لك) ونون التوكيد بالنون الثقيلة والنهي في ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا﴾ مما يدل على تحذير شديد لآدم من اتباع إبليس، وفي الوقت نفسه على حرصٍ عليه عظيم عليه؛ لئلا يقع في الشقاء إن هو ضعف أمام هذا العدو، والشقاء مجمل، وتفصيله الوقوع تحت طائلة الجوع والعري والظمأ والتعرض للشمس المحرقة، وتحمل التراكيب في طياتها مقابلة بين حالين: حال البقاء في الجنة وهي حال العيش الهانئ الرغيد، وهذه الحال تمثل الحياة المستقرة المطمئنة، وحال ما بعد الخروج من الجنة وهي حال العيش البئيس المضني المؤلم نفسيًّا وبدنيًّا، الذي لا تتحقق فيه حتى متطلبات الحياة الضرورية في الغالب الأعم، وهي: الطعام

١) الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود: تأويلات أهل السنة، ٦/ ١٣٤.

واللباس والشراب مع المعاناة والنصب والتعب جراء الكد والتعب تحت حرقة الشمس، هذا فضلاً عن الحسرة والندامة جراء الخروج من الجنة، وهذه الحال تعبر عن حياة الاغتراب بأجلى صورها.

ثم كيف كان الإخراج (التغريب عن الجنة) كان كما قال الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦]، عبر بـ(فَأَزَلَّهُمَا) بالفاء العاطفة المفيدة للترتيب والتعقيب، أي: بمجرد وسوسة إبليس لهما أكلا من الشجرة فكان الخروج، والخروج كان بالإكراه؛ لإن الإزلال هو الإخراج بالكره، والإخراج لم يكن من إبليس بل كان سببًا فيه؛ ولذلك ففي (أَزَلَّهُمَا) مجاز مرسل علاقته السببية، وهذا يدل على أن إبليس من أسباب اغتراب بني البشر، وقال: (عَنْهَا)، نقول: (زل عن ظهر الجواد)، أي: سقط، فكأن إبليس دفع آدم وحواء من مكانهما الذي كانا فيه وأزاحهما فسقطا، وتلك صورة مجازية، لكنها معبرة عن قسوة مفارقة الجنة والخروج منها، وهنا يمكن القول أيضًا: إن أزل من الزلل، أي: الوقوع في الخطأ، والضمير في (عَنْهَا) عائد على الشجرة وليس الجنة، وعن تفيد السببية، ويكون المعنى على هذا: فأوقعهما الشيطان في الخطأ بسبب الشجرة، (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) أي: فترتب على ذلك الإخراج بعقب الخطأ مباشرة مما كانا فيه من العيش الرغيد الذي ذكرناه قبل قليل، «والمراد من الموصول وصلته التعظيم، كقولهم قد كان ما كان»[1]، أي: تعظيم ما كانا فيه النعمة، والفاء إما عاطفة تفيد الترتيب والتعقيب وإما سببية، وهذا يدل على خطر نسيان الأمر والوقوع في الخطأ بعد التنبيه والتحذير المضاعفين، فإن هذا يؤدي إلى التغريب والوقوع في الاغتراب. وأسهمت الآليات الموظفة في الكشف عن سرعة انزلاق آدم وحواء إلى الاغتراب، وهذا يكشف عن الطبيعة البشرية سريعة النسيان والضعيفة أمام الشهوات، وهذا ما دل عليه قوله تعالى من القصة: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

١) محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م) ١/ ٤٣٤.

ووظف أسلوب الأمر مرة بعد مرة لبيان حال التغريب والاغتراب: فجاء الأمر للجميع بالهبوط إلى الأرض: ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة: ٣٦] و[الأعراف: ٢٥] و﴿اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨] و﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [طه: ١٢٣].

والهبوط بضم الهاء: النزول، الهبوط: الخروج من البلدة، وهو أيضًا دُخولها، فهو من الأضداد، ويلمح من الهبوط معنى آخر وهو الانتقال من العلو إلى السُفْل، ومن الرفعة إلى الانحطاط، وهي معانٍ تعبر حال التغريب والاغتراب المكاني والمعنوي.

وظاهر الآيات أن التغريب هنا كان لآدم وحواء وإبليس، وهو ناشئ عن ارتكابهم المعصية بمخالفتهم لأمر الله، وإن كان الأمر في آية سورة طه لمثنى وليس لجمع، وهو – كما قيل – «خطاب لآم وحواء. والعرب تخاطب الاثنين بالجمع؛ لأن التثنية أول الجمع، ومثله من التنزيل قوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨]، يريد حكم داود وسليمان»[1]، ولعل المقصود ذرية آدم وذرية إبليس بالتبعية لهبوط آدم وإبليس.

وجاء الأمر لإبليس بالخروج من الجنة: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] و﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨] و﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥] و﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٧-٧٨].

الخروج كالهبوط تغريب واغتراب مكاني ومعنوي، وأمر الله لإبليس بالخروج بعد أمره له بالهبوط «تأكيد للأمر بالهبوط متفرع عليه، أي: فاخرج من هذا المكان أو المكانة، وعلل ذلك بقوله على طريق الاستئناف البياني: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أي: أولي الذلة

١) الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: التفسير البسيط (عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ) ٢/ ٣٩٥.

والصغار»[1]، وعلله كذلك بقوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ وبقوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: مرجوم بالشهب ملعون مطرود من جوار الله ورحمته. وقوله: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: مذمومًا ملومًا عند الخلق جميعًا، مقصيًّا مبعدًا عن كل خير.

و«كلمة ﴿فَاهْبِطْ﴾ تشير إلى أن الهبوط أمر معنوي، أي: أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة. هذا ما تدل عليه كلمة ﴿فَاهْبِطْ﴾، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان»[2]، فهنا تغريب واغتراب معنويان.

ومما يلفت النظر أن الله عبر عن إخراج آدم وحواء من الجنة بـ(اهبط)، وأشرك إبليس معهما في ذلك وخصه بـ(اخرج)، ولعل السبب في ذلك أن كلمة (اهبط) وإن كانت تشير إلى الإخراج والتغريب إلا أن فيها نوعًا من الليونة والحنو نستشعره من خلال نطق الكلمة بخلاف كلمة (اخرج) فإن فيها شدة وحزمًا، وهذا مترتب على طبيعة المعصية، فمعصية آدم وحواء ناشئة عن النسيان والخطأ وليس التعمد والإصرار، بخلاف معصية إبليس فكانت عن تعمد وإصرار، ولما كانت العقوبة الإلهية على قدر المعصية، أُكْتُفِيَ بالإهباط مع آدم وحواء، وجُمِعَ لإبليس الإهباط والإخراج، ولم يكن الإخراج إخراجًا عاديًّا، بل إخراج مع الإهانة والتحقير والذم والرجم والطرد واللعن، وهي أمور ما أبشعها وأشدها إذا ما اجتمعت على مخلوق، وهذا يدل على أن إبليس اجتمع عليه أنواع من الاغتراب المكاني والروحي والنفسي والشعوري... إلخ. ثم إن الله تعالى وصف معصية إبليس بأنها فسوق: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، والفسق: الخروج عن طاعة الله، فالتعبير بـ(اخرج) فيه مشاكلة العقوبة للمعصية، وهذا من عظيم بلاغة القرآن الذي دائمًا ما يتوخى التناسب والتواؤم

١) محمد رشيد رضا: تفسير المنار (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م) ٨/ ٢٩٧.
٢) محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (مطابع أخبار اليوم، القاهرة) ٧/ ٤٠٦٧.

والتشاكل بين المفردات والتراكيب والأساليب والمعاني؛ ولذا جاء النص القرآني من أوله إلى آخره في غاية الانسجام والتآلف.

وجاء الأمر لإبليس كذلك بـ(الذهاب) و(الاستفزاز) و(الإجلاب) و(المشاركة) و(الوعد) لما تعلق الأمر بعلاقته مع بني آدم: ﴿اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣- ٦٤].

ونلاحظ تعدد أفعال الأمر، وهي تعبر عن الخطوات التي سيتخذها إبليس مع بني آدم لإغوائهم وتغريبهم وإيقاعهم في الاغتراب بأنواعه المختلفة، فالخطوة الأولى القصد وهو ما عبر عنه القول الكريم بـ﴿اذْهَبْ﴾، والخطوة الثانية الاستفزاز المعبر عنه بالأمر ﴿اسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾، والخطوة الثالثة الحرب المعبر عنها بـ ﴿أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾، والخطوة الرابعة السطو على مقدراتهم وسلبهم ممتلكاتهم وانتهاك حرماتهم، وهو ما عبر عنه الأمر ﴿شَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ والخطوة الأخيرة تزييف إبليس الحقائق لخداع بني آدم وتغييب وعيهم حتى لا يتنبهوا لأفعاله الشنيعة السابقة فيما يتبعه من خطوات للإيقاع ببني آدم ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وهذا من قبيل ما يسميه البديعيون التقسيم المعنوي، وهو تقسيم الكلام قسمة تحتوي على جميع أنواعه، ولا يخرج منها جنس من أجناسه، وهنا لم يبق جنسًا من أجناس الكيد والعدوان إلا أورده.

وقد يتسرب إلى وهم القارئ أن الحق سبحانه – وحاشاه – يأمر إبليس ويرسم له الطريق للإيقاع ببني آدم في شراكه وإغوائهم وتغريبهم عن طريق الله المستقيم، فليس الأمر كذلك؛ فإن إبليس لما أظهر كبره وغطرسته وما تنطوي عليه نفسه من حسد وسوء طوية، وأصر على ذلك وأظهر التحدي جابهه الله، وكأنه يقول له: افعل ما بوسعك فلن تستطيع فعل شيء لم أقدره، كما قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]؛ إذ الأمر هنا

ليس للإباحة بل هو للتحدي والتعجيز، وأفعال الأمر هنا كذلك ليست على معناها الحقيقي أو للإباحة، بل هي للتحدي والتعجيز، بدليل قوله تعالى بعد الآيتين السابقتين مباشرة: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]، وقوله تعالى في موضع آخر من القصة: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وجاء طلب إبليس من الله الإنظار في صورة الأمر: ﴿أَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] و[الحجر: ٣٦] و[ص: ٧٩]، «وهذا السؤال من إبليس لم يكن من ثقة منه بمنزلته عند الله تعالى وأنه أهل أن يجاب له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه كفعل الآيس من السلامة»[1]، وهذا يدل على ما انتابه من إحساس بالاغتراب الروحي والنفسي بل والفكري.

واستخدم القول الكريم أسلوب الاستفهام في عدة مواضع من القصة: الأول- قول الملائكة لربهم سبحانه وتعالى لما أخبرهم بأنه سيجعل خليفة في الأرض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ وهو استفهام «يقتضي صدور الذنب عنهم ويدل على ذلك وجوه:

أحدها: أن قولهم: أتجعل فيها. هذا اعتراض على الله تعالى وذلك من أعظم الذنوب.

وثانيها: أنهم طعنوا في بني آدم بالفساد والقتل وذلك غيبة والغيبة من كبائر الذنوب.

وثالثها: أنهم بعد أن طعنوا في بني آدم مدحوا أنفسهم بقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وأنهم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]، وهذا للحصر، فكأنهم نفوا كون غيرهم كذلك، وهذا يشبه العجب والغيبة،

١) الماوردي: تفسيره النكت والعيون، ٣/ ١٥٩.

وهو من الذنوب المهلكة قال عليه السلام: «ثلاث مهلكات...»، وذكر فيها إعجاب المرء بنفسه[1]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]»[2].

والحق أنه استفهام عما يجهلونه، استفهام جاء بالمعنى الحقيقي للاستفهام، فالملائكة «لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد، فقال تطييبًا لقلوبهم: "إني أعلم"، وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء، وكشف لهم عن مكنون علمه. وقيل: إن الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء. وذلك لأن الأرض كان فيها الجن قبل خلق آدم فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة فقتلهم وألحقهم بالبحار ورؤوس الجبال، فمن حينئذ دخلته العزة. فجاء قولهم: "أتجعل فيها" على جهة الاستفهام المحض: هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا»[3].

وسواء حُمِلَ الاستفهام على المعنى الأول الإنكار أو على المعنى الثاني معناه الحقيقي – وإن كان المرجح هو المعنى الثاني – فإنه يكشف عن حالة اغتراب؛ اغتراب نفسي وشعوري إذا حملنا الاستفهام على المعنى الأول، وهذا مستبعد؛ لأن الله خلق الملائكة مسخرين لطاعته أبدًا. أو اغتراب معرفي ناشئ عن الجهل إذا حمل الاستفهام على المعنى الحقيقي؛ إذ الغرض من استفهامهم هذا «استكشاف عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المتعلم معلمه عما يختلج في صدره، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته، ولا

١) أخرجه الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد في المعجم الأوسط، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م) ٥/ ٣٢٨، حديث رقم: ٥٤٥٢.

٢) فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ٢/ ٣٨٩.

٣) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٧٤.

طعن في بني آدم على وجه الغيبة، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله سبحانه تعالى عنهم: ﴿بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]»[1].

والموضع الثاني: في الاستفهام التعريضي بالملائكة بعدما قالوا ما قالوا في استفهامهم السابق: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]؟ فكأن الله تعالى يبكتهم على تجرؤهم بالسؤال: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]؟ لأنهم يعلمون علم الله المطلق بالأمور، ويعرفون حكمته البالغة، فلم سؤالهم مع علمهم بذلك؟ ويكشف هذا السؤال عن حالة اغترابية أخرى وقع فيها الملائكة لبرهة، وهي من الاغتراب الروحي الذي يحصل عندما تتنازع اليقين أشياء طارئة.

الموضع الثالث: سؤال الله لإبليس لما امتنع عن السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]؟ وقال تعالى: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢]؟ وقال سبحانه: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]؟ على سبيل التوبيخ والتبكيت والتقريع، «ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدًا أنه غير واجب عليه، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب. فإن قلت: كيف يكون قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] جوابًا لما منعك، وإنما الجواب أن يقول: منعني كذا؟ قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم، وبعلة فضله عليه، وهو أنّ أصله من نار وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه، وهي إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأمورًا بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة كان مستبعدًا أن يؤمر بما أُمر به»[2]. و(لا) في (أَلَّا) «للتنبيه على أن الموبّخ عليه ترك

---

١) البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ) ١/ ٦٨.

٢) الزمخشري جار الله: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٢/ ٨٩.

السجود. ولتوكيد معنى الفعل الذي دخلت عليه وتحقيقه، كما في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ﴾ [الحديد: ٢٩]، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك. وتوقف بعض المحققين في وجه إفادة (لا) النافية تأكيد ثبوت الفعل مع إيهام نفيه، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكده مطلقا، بل إذا صحبت نفيًا مقدمًا أو مؤخرًا صريحًا أو غير صريح، كما في ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وكما هنا، فإنها تؤكد تعلق المنع به»[١].

يتبين من خلال ما عرضناه من تراكيب وأساليب تلونها بجو التغريب والاغتراب الذي يجلل قصة آدم عليه السلام، فجاءت هذه التراكيب والأساليب وغيرها معبرة عن هذا الجو.

رابعًا- تجليات الاغتراب في أبنية القص:

القص، هو: «نقل الأحداث والمواقف من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية تجعل القارئ يتخيلها وكأنه يراها بالعين»[٢]. وأبنية القص عناصره التي يتكون منها، وهي: الراوي والأحداث والصراع والشخصيات والزمان والمكان والفكرة[٣] وتقنيات القص وأبرزها الوصف والحوار.

وقد تجلت مظاهر الاغتراب في البناء القصصي، تجلت في الأحداث، فقصة آدم عليه السلام تدور حول إخبار الله تعالى ملائكته بأنه سيجعل في الأرض خليفة هو آدم عليه السلام ، وأمر الله لهم بالسجود بعد أن ينفخ فيه من روحه، وتعبير الملائكة عن خشيتهم أن يفسد هذا المخلوق في الأرض، ونفخ الله في آدم وسجود الملائكة له امتثالاً لأمر الله،

١) القاسمي: محاسن التأويل، ٥/ ١٢.

٢) حسين علي محمد حسين: التحرير الأدبي (مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م) ص٢٩٣.

٣) الفكرة، هي: «المغزى الذي يرمي إليه الكاتب من تأليف القصة، والهدف الذي يهدف إلى تقريره، وهي غالبًا الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة، أو السلوك الإنساني». حسين علي محمد حسين: التحرير الأدبي، ص٣٠٠.

وامتناع إبليس من السجود، ومجادلته رب العزة بعدما سأله لِمَ لمْ يسجد – وهو سبحانه أعلم بما في نفسه، ومن ثم طرده من الحضرة الإلهية، وطلبه من الله أن ينظره إلى يوم يبعثون، وإنظار الله، وتوعده لبني آدم بالإغواء والصد عن سبيل الله، وتوعد الله له ولمن تبعه بأن يملأ منهم جهنم، وتتوالى الأحداث بإسكان الله آدم وزوجه الجنة ونهيه عن الأكل من الشجرة وتحذيره من إغواء إبليس له ووسوسته؛ حتى يخرجه من الجنة حيث العيش الرغد والراحة إلى دار العيش الكد والشقاء، وضعف آدم أمام إغواء إبليس ونسيانه الأمر الإلهي والأكل من الشجرة هو وزوجه وظهور سوأتهما جراء ذلك، وعتاب الله لآدم على مخالفة أمره ونسيان تحذيره من إغواء إبليس ووساوسه، وندم آدم وتوبته، وإخراج الله له من الجنة إلى الأرض مع إبليس، وبداية الصراع الحقيقي بين بني آدم وإبليس وجنوده، والصراع الناشئ عن إغوائه بين بني البشر، وأول لقطة لهذا الصراع الأبدي بين بني آدم نتيجة إغواء إبليس وما ركب في النفس الإنسانية من شهوات، كانت بين ابني آدم، وما تمخض عن هذا الصراع من جريمة بشعة تغيَّر لها وجه الأرض، هذه الجريمة التي أسفرت عن قتل قابيل لأخيه هابيل، ويتوالى من بعدها الصراع البشري.

ويبدو من خلال عرض الأحداث في القصة الصراع الحاد بين شخصيات القصة، لكن بدرجات، وبقدر ما كانت عليه الشخصية من اعوجاج السلوك والفكر بقدر ما يبرز الصراع؛ ولذلك نجد شخصية إبليس أبرز الشخصيات صراعًا، وظهر ذلك جليًّا في جدله من رب العزة سبحانه؛ ولذلك كان أكثر الشخصيات اغترابًا في قصة آدم عليه السلام؛ ذلك أنه يحمل نفسًا غير سوية، نفسًا حاسدة حاقدة متكبرة جدلة وجدالها لا يستند على حق أو أساس صحيح، لكنه جدال المبطلين المتكبرين الحسدة، ولما كان هذا حاله فقد طال اغترابه ولا يزال إلى الأبد في الدنيا والآخرة، ومما يزيد من قسوة اغترابه أنه اجتمع له كل أنواع الاغتراب: المادي والمكاني والنفسي والشعوري والروحي، وهو ما لم يجتمع لأحد من شخصيات هذه القصة ولا في غيرها.

أما شخصيات الملائكة – وإن بدا منهم شيءٌ من الصراع عندما أخبروا بخلق آدم – فإن شخصياتهم بما انطوت عليه من نفوس سوية خيرة قَصَّرَ من أمد الصراع، ومن ثم

قَصُرَتْ فترة الاغتراب وعادوا سريعًا إلى حال السكينة والأنس والطمأنينة في رحاب ربهم، فبمجرد تنبيه الله لهم على خطأ ما أبدوه من دهشٍ من خلق آدم وجعله خليفة في الأرض وهو ما تبدَّى في قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فبمجرد أن نبههم الحق في نبرة تحذيرية: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ حتى ارعووا ورجعوا من حالة الاغتراب التي انتابتهم هنيهة إلى حظيرة الطمأنينة والأنس في رحاب الله.

وأما شخصيتا آدم وحواء فصراعهما خارجي وباطني؛ فأما الصراع الخارجي فمع إبليس، فإبليس – كما علمنا من أحداث القصة – مترصد لآدم وذريته، فقد تعهد أمام الله بذلك فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، وقال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، وقال: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وما نلاحظه تعدد المواضع التي ورد فيها توعد إبليس لآدم وذريته، ثم إن إبليس توعد بكل أنواع الوعيد، توعدهم بألا يترك لهم سبيلاً يسلكونه إلى الله إلا ترصد لهم فيه، توعدهم بالغواية، توعدهم بتزيين الباطل والشر والضلال لهم، وتوعدهم بالاستئصال والسيطرة عليهم بالغواية، ولم يستثن إلا طائفة المخلصين.. فعلام يدل ذلك؟ يدل على شدة الصراع من قبل إبليس على آدم وذريته، ويدل أيضًا على ما انطوت عليه شخصية إبليس من الشرور، فهي شخصية حاقدة في قمة الحقد، شخصية اجتمع فيها الشر بشتى صنوفه؛ إذ لا توجد شخصية تحمل هذا الكم من الغل والحقد على مخلوق لم يسئ إليها بشيء، كل جريمته أنه مخلوق فضله الله وكرمه، وهما تفضيل وتكريم لا يد لهما فيهما؛ لذلك فشخصية إبليس شخصية فقدت السواء النفسي بالكلية، وهذا يؤكد حالة الاغتراب التي تعيشها.

وبإزاء هذا الصراع المرير الذي بدأه إبليس لتوه ضد آدم عليه السلام، ماذا كان موقف آدم منه؟ هل جابهه؟ هل تصدى له؟ الحق أن آدم ضعف أمام إبليس، على الرغم من أن الله حذره: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]، وضعف آدم ناشئ عن النوع الثاني من الصراع الذي يعتمل في النفس البشرية الراجع إلى طبيعتها المكونة من الروح والجسد، ومركوز فيها الخير والشر، ثم هي طبيعة شهوانية من جهة روحانية من جهة أخرى، كل هذا يشعل من الصراع في داخلها، هي تريد الاستقامة على طريق الله والسمو الروحي بدافع الفطرة، والشهوانية – مركب الجسد – تجذبها إلى الطريق الآخر، وإبليس الذي يمارس صراعًا مريرًا ضدها يعين على هذا، فإذا ما ضعفت – كما حصل لآدم بأكله هو وزوجه من الشجرة – وقع لها الاغتراب، وهذا ما حصل لآدم، لكن نزعة الخير المركوزة في طبيعته ردته سريعًا إلى الحق والخير، فقد تاب هو وزوجه وأنابا ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، فتاب الله عليهما ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]. فخرجا من حالة الاغتراب الروحي ورجعا إلى حالة الأنس والطمأنينة بالله عز وجل، لكن ما كان للخطأ الذي وقعا فيه أن يمر دون عقوبة، فكان الإخراج من الجنة والإهباط إلى الأرض اغترابًا مكانيًّا لهما ولذريتهما من بعده؛ لأن الإنسان في الأرض لا يستقر على حال؛ ولذلك فالشخصية البشرية التي يمثلها آدم وحواء في هذه القصة القرآنية تتنازعها حالتان: حالة أنس وطمأنينة عندما يبقى قريبًا من ربه مستقيمًا على أمره، وحالة اغتراب عندما يبتعد عن الله ويفسق عن أمره، وهاتان الحالتان مردهما إلى الناحية الروحية والنفسية والشعورية، لكن من ناحية المكان فالإنسان مغترب أبدًا منذ أن هبط إلى الأرض، فهي ليست مكان استقرار، فمهما عاش الإنسان على ظهرها فلا بد أن يغادر بالموت إلى الآخرة، وحتى وهو يعيش على ظهرها يعيش اغترابًا مكانيًّا من نوع آخر حين يغترب عن وطنه الذي ولد فيه، وهذا لا يخلو منه بشر.. إذن شخصية آدم الممثلة للشخصية الإنسانية يتنازعها قطبان: الأنس والاغتراب، وتخف حدة الاغتراب بمقدار اقتراب الإنسان من ربه

واليقين به والإيمان بقضائه؛ فإنه ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وإذا ما نظرنا إلى الزمان في القصة نجده مبهمًا غير محدد، لكن المكان فمتنوع بين الحضرة الإلهية والجنة والأرض، ووقع الاغتراب في هذه الأماكن جميعًا، ففي الحضرة الإلهية وقع الاغتراب المعرفي من الملائكة لما لم يدركوا الحكمة من خلق الله آدم عليه السلام ليكون خليفة له في الأرض، ووقع لإبليس لما فسق عن أمر ربه وأبى السجود لآدم، ووقع الاغتراب لآدم في الجنة، ولكن الاغتراب الذي وقع في الحضرة الإلهية والجنة من نوع الاغتراب الروحي، ووقع الاغتراب المكاني لإبليس لما طرد من الحضرة الإلهية ثم من الجنة إلى الأرض، ووقع الاغتراب المكاني لآدم لما أهبط إلى الأرض، وكل هذه الأنواع تنعكس بالسلب على النفس، فيتولد الاغتراب النفسي والشعوري.

وتقنيتا الحوار والوصف – وهما من أهم تقنيات القص – لهما الدور البارز في إبراز اغتراب شخصيات القصة، والحوار – كما نعلم – هو الذي يعبر عن طبيعة الشخصيات المتحاورة ويصور ملامحها النفسية، والوصف كذلك يكشف لنا سمات الشخصيات الخارجية والداخلية ويكشف لنا دوافعها السلوكية.

وسنتتبع الملامح النفسية لكل شخصيات القصة من خلال الحوار والوصف كالآتي:

فشخصيات الملائكة متزنة لا تجترئ على الله وتنفذ أمره، فمن خلال حوار الله لهم حول آدم وجعله خليفة وردهم تبدَّى هذا، فلما قال الله لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وجاء ردهم بما يشعر بنوع من الاعتراض: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] فلما قَالَ لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] رجعوا إلى الإخبات وتفويض الأمر لله قائلين: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] فهم شخصيات طيعة تعرف قدرها فلا تتجاوز هذا القدر، وتعرف قدر الله فتقدره حق قدره؛ ولذا فتوسم

هذه الشخصيات بالاتزان والطاعة والخضوع للحق، ويؤكد الوصف هذا، في نحو: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠].

هذا بخلاف شخصية إبليس التي برزت تقنية الحوار أكثر ما برزت في جداله مع الله، وقد أبان هذا الحوار عن طبيعة شخصيته وكشف عن ملامحها النفسية؛ فقد أبان لنا الحوار عن شخصية: مختلة التفكير متكبرة، فحين سأله الله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢] ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)﴾ [ص: ٧٥].. كان رده: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧٦].. واختلال تفكيره أنه لم ينظر إلى الآمر سبحانه، بل قاده تفكيره المنحرف إلى عقد مقارنة بين أصل خلقه وأصل خلق آدم، وكان حقه أن يقدر الله العظيم الحكيم حق قدره ولا يرد أمره مهما كان، ثم المقارنة التي عقدها لا تصح في العقل ولا الواقع؛ إذ ما الذي أدراه أن النار أفضل من الطين؟ وأما كبره وتعاليه فبتفضيل نفسه على آدم، وعدم تنفيذه أمر الله بالسجود لآدم.

وهو شخصية عنيدة تصر على الخطأ وتتمادي فيه، فحين قال الله ردًّا على اختلال تفكيره وكبره: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥] ما كان منه إلا أن أصر على عناده وتمادى في الخطأ، فقال: ﴿أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤] ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦] ﴿رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩].. وانظر إلى كلامه الأخير في سورة ص صدره بـ﴿رَبِّ﴾ إذن فهو يعلم أن الله ربه، أي: خالقه وهاديه ومرشده ومعينه وراحمه ... إلى غير ذلك من صفات الربوبية، ومع هذا أصر على عناده، وكان الأجدر به أن يثوب ويتوب، لكن منعه كبره وسوء طويته من ذلك.

وهو شخصية حقودة حسودة عدوانية إلى أبعد حد، فعندما قال الله له ردًّا على طلب إنظاره إلى يوم الدين: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥] ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝٣٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٧-٣٨] كان رده شنيعًا: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]، ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، لقد أعلنها حربًا شعواء على مخلوق لم يسئ إليه شيئًا، فلقد توعده بكل سبيل، بما يكشف عن عدوانيته المفرطة، وحسده الدفين، وحقده الشديد.

ولقد أسهم الوصف في تأكيد ملامح طبيعة إبليس البشعة، فقد وصفه الحق سبحانه بالتأبي والكبر والعناد والكفر: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١]، ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص: ٧٣-٧٤]. ووصف الله عداوته الشديدة لآدم وذريته فقال مخاطبًا له ولزوجه: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢]، أي: عداوته ظاهرة سافرة، ولقد بدأ التطبيق العملي لهذه العداوة لتوه مع آدم: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢١]، ولاحظ الوصف هنا يؤكد على ما دل عليه الحوار من أن إبليس الذي توعد بأن يسلك كل سبيل توصله إلى غواية آدم وذريته وإهلاكهم، هنا بدأ التطبيق العملي، فاتبع أربعة طرق: الوسوسة، أتبعها بالتطميع في الملك أو الخلود،

فالقسم للإقناع وللإيقاع بهما، ثم التزيين ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾، فانظر هذا الحصار الرهيب المحكم لهما .

وقد كشف الحوار والوصف بجملتهما عن شخصية مجترئة في غير موضع الجرأة، جدلة في غير حق، ولا تجتمع هذه الصفات في شخصية إلا نمت عن نفس غير سوية بالمرة، وأنه لا أمل في شفائها من أدوائها تلك، فحق عليها الاغتراب أبدًا روحيًّا ونفسيًّا وشعوريًّا وماديًّا.

وأما شخصية آدم وحواء بالتبع له، فيكشف الحوار والوصف عن أنها شخصية نقية أوابة توابة لا تتمادى في الخطأ إن وقع منها، وهي شخصية يجملها الحياء، لكنها شخصية يعتريها النسيان والضعف أمام الشهوات، فلقد قال الله لآدم: ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]، وحذره من إبليس فقال له: ﴿يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [طه: ١١٥-١٢٣]، لكن ماذا حدث؟ نسي آدم تحذير الله له من إبليس وضعف أمام وسوسته وشهوته: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]، فأكل من الشجرة هو وزوجه فوقعا في اغتراب نفسي وروحي وشعوري: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهنا تتبدى صفة الحياء، فلم تبدت عورتهما، اعتراهما الحياء، فطفقا يستران أنفسهما بورق شجر الجنة.

وما وقع فيه آدم من اغتراب نفسي وروحي وشعوري جراء مخالفته النهي الإلهي عن الأكل من الشجرة واتباع نزغات الشيطان، اغتراب طارئ؛ لأنه لما ناداهما ربهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢] تابا وأنابا واعترفا بذنبهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فكشف هذا عن نفس أوابة لا تصر على الخطأ بل سريعًا ما

ترجع إلى حالة السكينة، لكن لأن الخطأ لا يترك من غير تقويم فكان لابد من عقوبة وهي: إهباط آدم وزوجه إلى الأرض ليعيشا الاغتراب المكاني.

ومن الشخصيات التي كان للحور والوصف دورهما في إبراز طبيعتهما وملامحهما النفسية شخصيتا هابيل وقابيل ابني آدم اللذين قرب كل واحد منهما قربانًا لله بغرض فض نزاعٍ نشب بينهما، فمن تُقُبِّلَ قربانه كان هو صاحب الحق، فتُقُبِّلَ قربان هابيل، فدار بينهما هذا الحوار الكاشف عن طبيعة كل واحدٍ منهما، قال قابيل: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧] فهذه العبارة الوجيزة المؤكدة بلام القسم والنون المشددة لتشي للوهلة بملامح بشعة تحملها نفس قابيل: الحسد الدفين، والعدوانية المفرطة؛ لأنه بدأ مباشرة بأقصى ما يصل إليه الاعتداء: القتل الذي يعني إزهاق الروح وإهلاك النفس، ثم إن ذلك الحسد وتلك العدوانية موجهان لشخص لم يسئ، ثم هو أخوه رحمه، إذن فما ارتكبه قابيل إزاءه غير مبرر، ما ذنبه أن أنعم الله عليه واصطفاه، وهذا يكشف عن نفس شرهة غير قانعة، نفس متطلعة إلى ما عند الغير غير راضية عن الله في عطائه لها، وهنا يبرز ملمح آخر لهذه النفس ألا وهو أنها نفس مضطربة قلقة لا يستقر لها قرار.

ولما قال قابيل هذا الذي قاله رد عليه هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] لتبرز ملامح شخصيته التقية التي تخاف الله، المؤمنة بالله حقًّا، المسالمة الموادعة لا عن ضعفٍ بل ما يحملها على الموادعة والمسالمة الخوف من الله أن ترتكب إثمًا، ثم هي شخصية ليست بالأنانية بل تحب الخير للآخرين، فهي ناصحة هادية مرشدة محذرة حريصة على مصلحة الآخرين، وهذا ينم عن أنها شخصية قيادية دعوية.

ومن خلال الحوار تتبدى شخصية قابيل شخصية مغتربة روحيًّا ونفسيًّا، بينما شخصية هابيل تعلوها السكينة وتجللها الطمأنينة.

وقد تأكد اغتراب شخصية قابيل الروحي والنفسي من خلال الوصف: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ

كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣٠-٣١]، فبإقباله على قتل أخيه أورثه الله همًّا وحزنًا لا يفارقانه أبدًا، وهذه سنة الله فيمن قتل نفسًا بغير حق، ثم انكشف عجزه وقلة حيلته لما لم يعرف كيف يدفن جثة أخيه، وهذان ملمحان في شخصيته؛ العجز وقلة الحيلة، إنه أعجز وأقل حيلة من طائر صغير (الغراب)، ومما يدل على الهم الذي اعتراه قول الحق: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ وندمه لم يكن على قتله لأخيه، وإنما كان ندمه وتحسره على ما ظهر منه من عجز وقلة حيلة أمام الغراب الذي علمه كيف يواري جثمان أخيه.

وهكذا، أسهمت الأدوات الفنية في تصوير ظاهرة الاغتراب وإبرازها في قصة آدم عليه السلام.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة الماتعة مع دراسة ظاهرة الاغتراب في قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم يمكن استخلاص عدد من النتائج، هي:

١- تأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن ظاهرة الاغتراب ليست وليدة العصر الحديث، بل هي قديمة ضاربة في أعماق التاريخ، حتى قبل خلق آدم عليه السلام، ولكنها تكشفت وبانت بعد نفخ الروح فيه، ومن ثم فهي ظاهرة ليست حكرًا على البشر، بل طالت خلقًا من خلق الله غير البشر، طالت الملائكة عباد الله المكرمين الذين ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وتجلت في إبليس بشكل بشع، وكأنها سنة من سنن الله في خلقه؛ إذ نلمس مظاهرها على جميع خلق الله، وبخاصة الإنسان، وفي هذا العصر الذي نعيشه بالذات.

٢- تعددت أسباب الاغتراب في قصة آدم، وهي في جملتها ترجع إلى الذات التي انحرفت عن الفطرة السوية التي فطر الله الخلق عليها، وأهم هذه الأسباب: الجهل بحكمة الأمر الإلهي، وانحراف التفكير، وارتكاب المعاصي، ونسيان الأمر الإلهي، واتباع وساوس الشيطان، وحب الشهوات.

٣- تعددت أنواع الاغتراب في قصة آدم عليه السلام ما بين اغتراب معنوي واغتراب حسي، ومنها في قصة آدم: الاغتراب المعرفي، والاغتراب الشعوري والروحي والنفسي، والاغتراب المكاني.

٤- كان لظاهرة الاغتراب في قصة آدم عليه السلام تجلياتها في جميع مكونات النص؛ فكان لها انعكاسها في الناحية الصوتية (الإيقاع)، وفي المعجم والصيغ، وفي الأبنية والتراكيب، وفي الأساليب، وفي أبنية القص.

٥- الخلاصة، ظاهرة الاغتراب جلية واضحة بارزة في جنبات قصة آدم عليه السلام في كل مواضعها في القرآن الكريم.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- القرآن الكريم – جل من أنزله.

ثانيًا- المصادر:

١- أحمد بن حنبل: مسنده، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م).

٢- الأخفش، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري: معاني القرآن، تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة (مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م).

٣- البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: تفسيره (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، تحقيق: سليمان مسلم الحرش (دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م)

٤- أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي: المجالسة وجواهر العلم، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (جمعية التربية الإسلامية، البحرين - أم الحصم، ودار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

٥- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ).

٦- الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، (شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

٧- الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم: الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي (دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

٨- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل (مكتبة الخانجي، القاهرة).

٩- الخطيب الإسكافي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأصبهاني: درة التنزيل وغرة التأويل، دراسة وتحقيق وتعليق: د/ محمد مصطفى آيدين، (جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

١٠- الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل: معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي (عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

١١- الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (دار الريان للتراث – القاهرة، ودار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة - ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

١٢- السمرقندي، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم: بحر العلوم (بدون بيانات).

١٣- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله: فتح القدير، (دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ه).

١٤- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد في المعجم الأوسط، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني (دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م).

١٥- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، (دار التربية والتراث، مكة المكرمة).

١٦- ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م).

١٧- الفخر الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، (دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣، ١٤٢٠هـ).

١٨- القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق: محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ).

١٩- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م).

٢٠- القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك: لطائف الإشارات تحقيق: إبراهيم البسيوني (الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، الطبعة الثالثة).

٢١- القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري: فتح البيان في مقاصد القرآن، (المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا – بَيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)

٢٢- ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين: مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، (دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

٢٣- الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود: تأويلات أهل السنة، تحقيق: مجدي باسلوم (دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م) (٦/ ٤٣٨)

٢٤- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب: تفسيره النكت والعيون، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم (دار الكتب العلمية، بيروت).

٢٥- محمد رشيد رضا: تفسير المنار (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).

٢٦- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير (الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م).

٢٧- أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، (دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ).

٢٨- محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (مطابع أخبار اليوم، القاهرة).

٢٩- مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى: تفسيره، تحقيق: عبد الله محمود شحاته (دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ).

٣٠- النسفي، نجم الدين عمر بن محمد بن أحمد: التيسير في التفسير، تحقيق: ماهر أديب حبوش وآخرين (دار اللباب للدراسات وتحقيق التراث، إسطنبول – تركيا، الطبعة الأولى، ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م).

٣١- نشوان بن سعيد الحميرى اليمني: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد عبد الله، (دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ودار الفكر، دمشق - سورية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٣٢- الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: التفسير الوسيط، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م).

٣٣- الواحدي النيسابوري، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي: التفسير البسيط (عمادة البحث العلمي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ).

ثالثًا- المراجع:

٣٤- أحمد علي الفلاحي: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري – دراسة اجتماعية نفسية (دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م).

٣٥- أيمن حماد: الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة، (مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٢١م).

٣٦- حسين علي محمد حسين: التحرير الأدبي (مكتبة العبيكان، السعودية، الطبعة الخامسة، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م).

٣٧- حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى).

٣٨- عبد الله دراز: النبأ العظيم – نظرات جديدة في القرآن، اعتنى به وخرج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخني (دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م) .

٣٩- مجاهد عبد المنعم مجاهد: الإنسان والاغتراب، (سعد الدين للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م).

٤٠- محمد راضي جعفر: الاغتراب في الشعر العربي المعاصر (دار المعتز للنشر والتوزيع، عمان بالأردن، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م = ١٤٣٤هـ).

٤١- محمد زكي العشماوي: دراسة في النقد الأدبي المعاصر، (دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٦م).

٤٢- محمود رجب: الاغتراب مسيرة المصطلح، (دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٦م).